

الحرب عبر التاريخ

الجزء الرابع

تأليف الفيلد مارشال

مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر



مكتبة الأنجلو المصرية



A HISTORY OF WARFARE

الجزء الرابع

تأليف

الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى

تعريب وتعليق العميد

فتحى عبد الله النمر

رئيس مادة التاريخ العسكرى بالكليات العسكرية
وحاصل على جائزة الموضوعات العسكرية
فى عيد العلم العاشر والحادى عشر

التصديق بالنشر

خطاب رقم ن/م ث/٦/١/٢٠٢١

رقم الإيداع ٣٢٩٠ / ١٩٧٢

المطبعة الفنية الحديثة
٢٠ شارع الأصبغ بالزيتون ت ٨٦٤٨٧١

الفهرس

تابـــع الفهرس

الفصل الحادى عشر

الاتراك العثمانيين

الموت الاسود

إذا تأملنا فى النطاق الذى ضربه البرابرة حول أوروبا فى العصور الوسطى ، لوجدنا أن هذا الحصار رفع أسرع فى الشمال والغرب عنه فى الجنوب الشرق . ومع حلول عام ١٠٠٠ امكن أمتصاص واستيعاب المعتدين القادمين من الشمال . وفى عام ١٥٠٠ مكن التقدم التكنولوجى أوروبا الغربية من انتهاج إستراتيجية هجومية عالمية . ولكن الهجوم التركى على الجنوب الشرقى كان أكثر شراسة ورعباً وأطول أمداً . وقد نعتبر الحملات الصليبية سلسلة من التحركات الدفاعية ، وقد نجحت الحملات الأولى لأنها فاجأة العدو ، ولكن فيما بعد إزداد التردد والحيرة خلال هذه الحملات . وعلى كل فالفشل الذى منى به أعنف هجوم مضاد قامت به أوروبا فى العصر الوسيط ليؤكد بأس وقوة هذا العدو .

ولقد كان للأتراك ، قبل كل شيء ، التفوق العددى الساحق ، فهم عبارة عن مجموعة ضخمة من الشعوب شبه الرحل ، والذين يتميزون بلغتهم الخاصة ، وقد زحفوا نحو منطقة شرق البحر الأبيض قادمين من آسيا الوسطى تحت ضغط التوسع المغولى ، وتحت إغراء ضعف العرب .

وكان لدى الأتراك فى الغرب[1] أعدادا لا تحصى من القوة البشرية ، على عكس أوروبا الذى أخذ التعداد بها يتناقص بطريقة مخيفة فى الفترة مابين ١٣٤٧ ، ١٣٥١ تحت ضربات منجل الموت الأسود[2] ، وأكثر من ذلك فكانت معنويات الأتراك مرتفعة ، بل أنها كانت تفوق معنويات خصومهم الأوروبيين . ولم يكن الأتراك شعباً بدائياً بل كانوا الورثة

(١) لقد اعتبر الأتراك فى الغرب رأس الحربة لهذا الشعب التركى النازح من الشرق .

(٢) الطاعون . « المعرب »

لإنصهار وإندماج حضارتين ناضجتين ، هما حضارة الإسلام وحضارة السهول . ولم يكن هناك أى أمل فى إمكان نزع سلاح المقاتل التركى المسلم العنيف والمملوء بالقوة والنشاط وتحويله عن عنفه سواء أكان ذلك بواسطة الفروسية والتى أصبحت اندفاعاً خالياً من المتعة والتشويق أو بتأثير سلبية العقيدة الأرثوذكسية والتى كانت نتاج الحضارة البيزنطية المشرفة على الموت .

ولكن السبب الرئيسى فى فشل أوروبا الطويل فى القيام بأى تقدم ضد مهاجميها الأسيويين كان مرجعه أسباب تكنولوجية . فعبر المراحل المتعددة للتاريخ ، كانت التكنولوجيا الحربية الأسيوية تتفوق على مثيلتها لدى الأوروبيين ، فيما عدا مرحلة واحدة عندما شكل الأسكندر فرسانا خفيفة الحركة بالإضافة إلى قوة احتمال عالية مع توفر هدف تكتيكى واضح. ماعدا هذا فقد انتصرت خفة الحركة الأسيوية فى كل صدام كبير حدث فى الشرق ، كما حدث فى « كارا » و « حطين » ، بل وحتى فى العصور الوسطى المتأخرة عندما أصبح الفارس الأوروبى مدجج بالسلاح والدروع ثقيلة ، فوجد الفارس الأسيوى الممتطى حصان المراعى الخفيف من السهل عليه الدوران حول الفارس الثقيل بل وتطويقه . ويمكن أن نرجع النجاح المستمر للأتراك ، فى العصر الذى كان الأوروبيون يتوسعون على جبهات أخرى ، إلى إدراكهم السريع وقبل الأوروبيين للتأثير الثورى لإستخدام الأسلحة النارية .

وبالرغم من أن الأتراك من أصل آسيوى ، إلا أنه لابد من ربط تاريخهم العسكرى مع الأوروبيين . ففى الفترة مابين ١٣٠٠ ، ١٥٠٠ وهى الفترة التى وصلت فيها القوة العسكرية التركية إلى أوجها ، فقد زحفوا نحو أوروبا على جبهتين هما الدانوب والبحر المتوسط ، أما جبهتهم الشرقية فقد أعتبروها كمؤخرة لهم . وقد وجهوا استراتيجيتهم فى ذلك الاتجاه بناءاً على اعتبارات أوروبية . وفى الحقيقة كانت الإمبراطورية العثمانية هى القوة السياسية والحربية القائدة فى منطقة جنوب شرق أوروبا .

ارطغول

فى عام ١٠٧١ انتصر الأتراك السلاحقة على البيزنطيين فى معركة « ما نزكيرت »، وقد أدى هذا النصر إلى فتح الطريق للتقدم التركى عبر آسيا الصغرى . وكان هذا التقدم فى أوله مجرد استغلال فرصة سانحة وليست سياسة مخططة . وقد اهتم الأتراك السلاحقة بالجزيرة العربية أكثر

من اهتمامهم بالدولة البيزنطية ، ولكن الكثير من المحاربين الأتراك كانوا يفضلون أراضى الأناضول لجاذبيتها وخلوها من الوسائل الدفاعية ، ولذلك تحرك القادة الأتراك وأتباعهم نحو الغرب ، فكانوا يبحثون عن موطن لهم وفى نفس الوقت كانوا متأثرين بعقيدة الجهاد فى سبيل الإسلام ، ويدينون بالطاعة لقواعد « الفتوة »[1] . وعلى كل لم يعترفوا بسلطة السلطان السلجوقى عليهم إلا بقدر ضئيل ، لذلك عندما قضى المغول على السلاجقة عام ١٢٤٣ لم يؤثر هذا على الغزاة الأتراك المندفعين نحو الغرب . وفى نفس الوقت لم تستفد أوروبا على الإطلاق من هذا الحدث . وسرعان مارحل المغول ولكن ضغطهم القوى كان هو السبب الرئيسى فى تدفق الأتراك نحو الغرب ، وبالتالى فقد حث كل من الضغط المغولى والإيمان بالعقيدة الإسلامية الغزاة الأتراك على مهاجمة الإمبراطورية البيزنطية المتداعية .

وقد نشأت الدولة العثمانية من ضمن عدة قوى غازية صغيرة ، وقد أسسها القائد الشبه أسطورى أرطغول ، وواصلت مسيرتها على طريق الشهرة والمجد بواسطة خلفائه عثمان (١٢٨١ — ١٣٢٦) وأورخان (١٣٢٦ — ١٣٦٢) . ولم يمض وقتاً طويلا على سقوط السلاجقة حتى برز العثمانيون كزعماء للأتراك ، ويرجع ذلك بصفة مبدئية إلى موقعهم الغربى الذى مكنهم من البقاء على قيد الحياة بعد التدمير والمذابح المغولية ، كما أصبح موقعهم هذا منطقة تجمع للمجاهدين الآخرين . ولكن رجع ذلك أيضاً إلى عبقرية زعمائهم الأولين والذى عرفوا كيف ينظمون ويقودون الطاقة التركية المندفعة غربا . ولم تكن أوروبا إبان ذلك الوقت أو حتى بعده فى حالة تسمح لها من صد الخطر التركى . كما أن نهب القسطنطينية على يد الصليبيين عام ١٢٠٤ كان اعلانا بتلاشى القوة السياسية والحربية البيزنطية . واكتملت الكارثة عندما استولى الأتراك على منطقة غرب الأناضول والتى كانت أهم مصدر للطعام والقوة البشرية للامبراطورية البيزنطية . وقد أدى انشقاق أعدائهم إلى سهولة التقدم التركى العثمانى . وكان الاختلاف الدينى بين الغرب والإمبراطورية البيزنطية هى المشكلة الأولى، لأن بيزنطة كانت تحتضن العقيدة الأرثوذكسية المنشقة ولذلك أصبح لدى أوروبا عذرها فى عدم مساعدة بيزنطة .

---

(١) مجموعة مبادىء وعقائد روحية عسكرية تشبه قواعد الفروسية ولكنها أكثر منها قوة ونشاطا . « المعرب »

وقد أدى السعى الدائب لبيزنطة من أجل الاتحاد مع روما إلى إضعاف معنويات الشعب البيزنطى . زد على ذلك أن البلغار والصرب لم يكن يكنون لبيزنطة أى حب ، أى أنه من أول الأمر قد فشل أهل أوروبا الغربية فى فهم أن مصير بيزنطة سيكون محتوما بدون مساعدتهم ، وحتى عندما أدركوا ذلك أخيراً أغلظوا قلوبهم وواصلوا اختلافهم معها . كما كتب البابا بيوس الثانى : — « من الذى يوحد أهل البندقية وأهل الأرجوان .. ؟ ومن الذى يصالح الألمان على الهنغاريين (المجر) والبوهميين .. ؟ وإذا قدت جيشاً صغيراً ضد الأتراك فسوف تلحقك الهزيمة بسهولة ، أما إذا كان جيشك كبيراً فسرعان ما سيتخبط فى خضم الفوضى والاضطراب . » وعلى أى حال كان الأوروبيون يعلمون أنهم يواجهون قوة حربية متفوقة . وعندما تصدوا للتقدم العثمانى ، لم يفعلوا أكثر من إعادة التجربة المحزنة للحملات الصليبية ، فهذا التصدى لم يجر عليهم سوى سلسلة متعاقبة من الهزائم المدوية .

الانكشارية (أنظر اللوحة رقم ٢١)

فى عام ١٣٠١ بدأ العثمانيون فى طرد البيزنطيين من آسيا الصغرى ، ولم تلتق فرسانهم بأى مقاومة فعالة أثناء أكتساحها لطول البلاد . وبالرغم من صمود بعض المدن لبضع سنوات ، مثل الجزر المعزولة ، إلا أن الأتراك أخضعوا وبسرعة جميع التخوم الداخلية . ومع حلول عام ١٣٥٦ كان الأتراك مستعدين للعبور إلى أوروبا . وفى ذلك الوقت قبل الأتراك الالتفاف حول مدينة القسطنطينية العظيمة ، واستولوا على «أدرنة» وبدأت الحشود التركية الهجرة إلى البلقان . وفى نفس الوقت نشر « أورخان » قوته ونفوذه فى آسيا ، مكملا بذلك عملية الإلتحام الكلى لكل أتراك آسيا الصغرى فى قوة واحدة . وبعد ذلك أندفع العثمانيون إلى الأمام نحو الدانوب ، وتحددت معالم هذه الانتصارات التركية على الصربيين عند نهر «ماريتزا» (١٣٧١) وعند « قوص أوه » (١٣٨٩) ، وبتدمير « بازيد الأول » لجيش صليبى مكون معظمه من الهنغاريين عند « نيكوبلى » (١٣٩٦) . أما القسطنطينية فقد حوصرت وأصبح مصيرها أمراً محتوماً . وقد جهز الأتراك أنفسهم ثلاث مرات لدخولها ولكن كانت أحداث أخرى هامة تغير هذا التجهيز . ولقد كانت هناك فرصة عظيمة لأوروبا لكى تحطم القوة العسكرية العثمانية وذلك عندما غزا « تيمور لنك »[1] آسيا الصغرى وهزم « بايزيد » عند

---

(١) تيمورلنك خان المغول وهو نصف تركى بالمولد . « المعرب »

أنقرة ، ولكن لم تتحرك أوروبا . وسرعان ما انتعشت القوة العثمانية من جديد وحقق العثمانيون انتصارين ساحقين آخرين عند « فارنا » (وارنه) (١٤٤٤) وعند « كوسوفو » (قوص أوه) (١٤٤٨) ، مما أدى أن محمد الثانى أخذ على عاتقه عملية الإستيلاء على القسطنطينية بعد أن تأكد أن أوروبا لن تحاول التصدى لهذه العملية .

وإذا نظرنا إلى النظام العسكرى العثمانى ، فسوف نجد أنه كان أساساً من خلق قائدين هما « أورخان » و « مراد الأول » ، ولم يكن هناك أى تمييز أو اختلاف بين الوظائف المدنية والعسكرية فى الدولة العثمانية فتلك الدولة تدين فى نشأتها إلى الزحف وراء الفتوحات ثم تطورت ونظمت للقيام بمزيد من الفتوحات . وكان السلطان هو القائد العام للجيش أكثر من وضعه كإمبراطور ، أما هيئة قيادته العسكرية فتكونت من رؤساء الإدارات الحكومية. وإذا تأملنا جنود الجيش التركى لوجدنا أنهم يدينون بالولاء للسلطان أكثر من ولائهم للدولة ، ويشبه هذا النظام نظام أوروبا الإقطاعى ولكنه نفذ فى صورة أفضل كثيراً . ولقد كان معظم الجيش يتكون من الميليشيا النظامية والتى تستوطن الأرض لقاء الخدمة العسكرية وحسب ما يطلب منها .. وهؤلاء الذين يمنحون الإقطاعيات كانوا يتدرجون فى الألقاب إبتدأ من ملاك المقاطعات الصغيرة مثل « التيمارا » و « السنجق »، حتى تصل إلى أعلى لقب وهو « البكلر بكوات »[1] . أما القوات ذات النظام الإقطاعى فكانت ممثلة فى الفرسان ويشكلون القوة الرئيسية التى يرتكز عليها الجيش ، وتواجد أيضاً جماعات من القوات الغير نظامية من المشاة والتى أطلق عليها « بالباشبوزق » والفرسان التى أطلق عليها « الأكيبى » وهؤلاء لم يكن يدفع لهم أجراً بل يخوضون القتال من أجل الغنائم والنهب.. أما صفوة قوات الجيش التركى فكانت ممثلة فى فرق الحرس الشخصى للسلطان، وسميت المشاة فى هذه الفرق بالإنكشارية[2] بينما سميت الفرسان « بالسباهى »

وكانت الإنكشارية بحق هى أكثر القوات شهرة فى الجيش التركى ، فقد كانوا مشاة محترفة . وهذه حقيقة ملفتة وجديرة بالملاحظة إذا راعينا الظروف التى نشأت فيها هذه الفئة

---

(١) كان البكلربكوات يحكمون مقاطعات كبيرة ويقودوا الوحدات القادمة من مقاطعاتهم فى الحرب .

(٢) لقد سماهم الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية « بنى تشارى » وبالتركية « تليجارى » أى الجيش الجديد ثم حرف فى العربية فصار انكشارى . « المعرب »

وعادات الأتراك فنجد أنه قام بتنظيمها قوم لايعرفون فى حياتهم سوى تقاليد الفروسية وفى وقت مثل القرن ١٤ حيث كانت المشاة محتقرة فى معظم دول الغرب .

ومن الممكن أن تكون آخر وقفة ضارية للفرق البيزنطية والتى طال تدهورها قد علمت « أروخان » أن يقدر إمكانيات الطاقة الكامنة فى قوة المشاة الجيدة. وكانت طريقة تجنيد الإنكشارية شاذة ولكنها كانت سليمة كما ظهر بعد ذلك .

فقد كانوا يأخذون وهم أطفال من العائلات المسيحية وغالباً ما كانت من مدن البلقان ، ثم يجرى تدريبهم فى مجتمعات خاصة ، وبعد ذلك ينضمون إلى نظام الدراويش الدينى حيث يتلقون فى معسكراتهم الشبيهة بالأديرة بالتعاليم التى تجعلهم مسلمين متعصبين ، كما كانوا يتلقون ايضاً أفضل ما يمكن لرفع لياقتهم البدنية علاوة على تدريب عالى على إستخدام الأسلحة . ولما كانوا هم الحرس الشخصى للسلطان فقد إحتلوا مكانة مميزة فى الدولة الأمر الذى جعلهم لايتبعون إلى أى إدارة حكومية أخرى بالإضافة إلى أنهم مسئولون عن المحافظة على النظام فى العاصمة وبالرغم من ذلك لم يكونوا مدللين وأجرهم كان ضئيلا ، فى نفس الوقت كان عليهم إتباع القوانين الإسلامية والخاصة بضبط النفس فى شكل صارم والإمتناع عن شرب الخمر وكبح الشهوات .

وعليهم تكريس ولائهم المطلق للسلطان مع التمسك الكامل بإحترافهم كجنود للسلطان .

وعلى كل كان الإنكشاريون القدماء يتلقون شرفا عظيما ومعاشات كافية .

وفى النصف الأول من القرن ١٦ وصلت الإنكشارية إلى أوج تألقها وأصبح عددها يتراوح ما بين ١٢٫٠٠٠ ، ١٥٫٠٠٠ .

وفى وقت السلم كان يتمركز نصف هذا العدد فى المقاطعات بينما يتمركز النصف الآخر فى العاصمة . وكانت « الأورطة » هى الوحدة التكتيكية الرئيسية وقد تراوح حجمها فى فترات مختلفة من ١٠٠ إلى ٣٠٠٠ مقاتل . وإتخذت ألقاب الضباط ، ألقاب المشرفين على الأعمال فى قصر السلطان ، فهى كانت تدل على أنهم يعيشون على إنعامات السلطان وأنهم

أولاده مثل « رئيس طهاة الحساء » و « كبير حراس الدموم »[1] و « شوربجى باشى » و « عشى باشى » و « سقا أغاسى » و « أودة باشى » .

أما قائد الإنكشارية فكان يطلق عليه « أغا » ولم يكن ضروريا أن يكون هو نفسه إنكشارياً ، ولكن الترقيات الأخرى داخل الإنكشارية فكانت أما بالجدارة أو بالأقدمية .

وتنوعت دروع الإنكشارية مع مضى الوقت ، وكان سلاحهم الرئيسى هو القوس المركب الصغير والذى كان يفوق مداه كل الأنواع الأخرى من الأقواس .

وكان من الضرورى على طائفة الرماة التى أسسها « مراد الثانى » أن يطلق المرء الذى يريد الانضمام إليها سهما لمسافة ٦٣٠ ياردة ولم يكن ممكناً تحقيق هذا المدى إلا بإستخدام قوس خفيف مع وجود ريح خلفية .

ومن المعروف أن المرمى المؤثر للسهم أثناء القتال أقل من ذلك بكثير ، وعندما ظهرت القرابين وثبت أنها عملية سلحت بها الإنكشارية ، ولكن ظلت السيوف والخناجر الطويلة من الأسلحة الثابتة .

وفى أوقات متفرقة كانت هناك أنواع أخرى من الأسلحة إستخدمتها الإنكشارية وأيضاً « الباشبوزق » وتضمنت المقلاع والقوس النشاب والرمح القصير والسيف المستقيم والمنخاس والبلطة والنبوت والمنجل والمدرس والسوط ، ولكن إستمرت الأسلحة النارية هى الأسلحة الرئيسية .

ولم تكن الرجال مثقلة بالدروع الواقية ، ففى القرن ١٥ ، ١٦ كانوا يحملون درعاً صغيراً مستديراً وعلى رؤوسهم خوذة معدنية على شكل الطربوش ذات سن مدببة فى قمتها وفى النادر يلبس نوع خفيف من الدروع على الجسم .

وكان لكل قسم فى الجيش زى خاص ملون ، كما كان الجنود يضعون على ملابسهم رمز فرقهم ، فمثلا كان رمز الإنكشارية « معلقة خشبية » ، كما أحبوا لدرجة كبيرة الوشم .

---

(١) الدموم هى الكلاب التى تستخدم فى مطاردة المجرمين . « المعرب »

وكانت الغالبية العظمى للجيش التركى من الفرسان ، وكانت « السباهى » هى صفوة هؤلاء الفرسان وكانت تعمل كنواة للباقى .

وفى الأعوام التالية لعام ١٥٢٠ تراوح عدد « السباهى » بين ١٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠ فارس . وكان كل فرد من السباهى مسئولا عن تجنيد وتدريب ما بين ٢ — ٦ فارس إضافى ، وكان هؤلاء يسيرون معه إلى المعركة فى شكل شبيه بالفارس الغربى وصحابته من حمله « الرماح » .

وكان السباهى هم الحرس الشخصى للسلطان ، كما كانوا يمنحون أجوراً عالية ، ولم يكن يسرى عليهم نظام تجنيد وتدريب الإنكشارية .

وكان القوس والرمح والسيف القصير من الأسلحة الرئيسية للفرسان ، ولكن لم يحمل الفرسان أى دروع دفاعية ، وإلى جانب الفرسان كان هناك أسلحة متخصصة مثل المدفعية ومشاة الأسطول وصانعى الأسلحة والدروع والحدادين والمسئولين عن امداد الجيش بالطعام والفرق الموسيقية ، وفى فترة معينة قام « تتار القرم » بتزويد الأتراك بوحدات من لدنهم . وبلغ المجموع النهائى لكل الرجال فى كل أسلحة ووظائف الجيش التركى وذلك فى ذروة مجدة أى أيام محمد الثانى (١٤٥١ ــ ١٤٨١) وسليم الأول (١٥١٢ ــ ١٥٢٠) وسليمان العظيم (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) فى حدود ٣٠٠و٠٠٠ رجل .

وكانت الدولة العثمانية دولة هائلة العدد بحيث سارت عملية التعبئة فيها بمنتهى السرعة وكاملة وبدرجة ملفتة للنظر .

أما القوات المحترفة من المشاة والفرسان والتى تعتبر النواة للجيش التركى فقد بلغ عددها حوالى ٢٥ر٠٠٠ رجل ، وكان هؤلاء غاية فى القسوة والوحشية مع أعدائهم ولكن كانوا أيضاً على مستوى عال من التدريب والضبط والربط ومشبعين بالحماس الدينى ويدينون بالولاء المطلق للسلطان .

وقد تأثر المراقبون الأوروبيون وبشكل عميق جداً بالجيش التركى وكتب جيوفيو عنهم : ــ

« لقد فاق جنود الأتراك جنودنا لأسباب ثلاثة ، الطاعة الفورية لقادتهم — عدم الإهتمام

بأرواحهم أثناء المعركة ـ إمكانهم العيش ولمدة طويلة بدون الخبز والنبيذ قانعين بالشعير والماء فقط » .

وفي عام ١٤٥١ أصبح محمد الثاني سلطاناً ، وعمـــره ١٩ عاماً ، وبالرغم من أنه كان قاسيـاً قليـل الــكلام يميـل إلى الشرب إلا أنـه كان طموحا ثابت العـزم وجنديا قديراً .

وعندما تولى العرش جعل هدفه الرئيسى استكمال فتح الإمبراطورية البيزنطية بالإستيلاء على القسطنطينية ، ونجاحه فى ذلك عام ١٤٥٣ لم يكن شيئاً مثيراً وغير عادياً ، فقد ظلت المدينة محاصرة منذ أمد طويل بالأتراك الذين جلبوا جيشاً قوياً بلغ أكثر من ١٠٠ر٠٠٠ رجل، فى ذلك الوقت كان يدافع عن أسوارها البالغ طولها ١٤ ميلا ٧٠٠٠ فرد فقط . وإذا كان هناك عنصر إثارة رئيسى فى سقوط القسطنطينية فى يد الأتراك فهو فى زوال الحضارة اليونانية نهائياً .

وقد أظهرت هذه العملية بوضوح وجلاء إنقضاء عصر الفروسية . ولم تحاول أى قوة مسيحية رفع الحصار .

ومن وجهة النظر العسكرية فإن النقطة الرئيسية الجديرة بالملاحظة فى هذا الحصار هى أنه كان حدثاً يمثل نقطة تحول فى تاريخ المدفعية .

مدفع اربان الوحشى

كان السبب الرئيسى فى عجز أوروبا على صد الأتراك هو أن الغزاة العثمانيين كانوا متقدمين فى إستخدام الأسلحة النارية عن أى شعب آخر فى أوروبا . وقد انتقل وإنتشر فن المدفعية من المسيحيين إلى المسلمين فى أسبانيا ومنها على طول شمال أفريقيا .

ومع عام ١٣٦٤ كان العثمانيون يصنعون مدافعهم فى آسيا الصغرى ، وفى عام ١٣٨٩ إستخدم الأتراك مدفعية الميدان عند كوسوفو (قوص أوة) . وعموماً فى القرن ١٥ كانت المدفعية تناسب هدم الأسوار فقط وسرعان ما أدرك الأتراك هذا واستمروا يعتمدون فى القتال على خفة الحركة والفرسان وتفوقهم العددى ولكن فيما يتعلق بأعمال الحصار فقد تعلموا سريعاً كيف يستخدموا السلاح الجديد (أى المدفعية) وبتأثير جيد .وقد كانت الأسوار

الثلاثية للقسطنطينية تعد من أقوى تحصينات العصور الوسطى . وقد ظهر خلال حصار عام ١٤٢٢ أن المنجانيق لن يكون مؤثراً ضد هذه الأسوار .

وفى الحقيقة قبل ظهور المدفعية كانت التحصينات البيزنطية هى الوحيدة التى توفر الراحة والطمأنينة للبيزنطيين ، ولكن عندما قام محمد الثانى بتجهيز معدات حصار ثقيلة لحصار القسطنطينية ، أيقن سكانها أن نهايتها قد قربت .

وفى عام ١٤٥٢ حضر مهندس هنغارى أسمه أربان[1] إلى الإمبراطور قسطنطين وعرض خدماته ، ولكن لم يكن بمقدور قسطنطين أن يدفع له ماطلبه أو يقدم له مايلزمه من المواد الخام المطلوبة .

وعلى ذلك قام أربان بعبور البوسفور والإجتماع بالسلطان وعرض عليه خدماته ، فقدم له محمد الثانى أربعة أضعاف الأجر الذى طلبه كما أعطاه كل المعاونة الفنية التى يحتاجها وبالتالى أصبح أربان أول الغربيين الخائنين الذين كثروا بعد ذلك ليبيعوا خدماتهم للأتراك كخبراء فنيين .

ومع بداية ١٥٤٣ وفى مدينة أدرنه أنتج أربان أكبر مدفع شوهد حتى ذلك الوقت الذى وصل طول ماسورته ٢٧ قدماً وذو قدرة على إطلاق كرات من الحجارة زنتها أكبر من ١٠٠٠ رطل .

وعندما جرب المدفع انطلقت القذيفة لمسافة ميل ، ويقال أن دوى المدفع بلغ من الشدة بحيث تسبب فى إجهاض الحوامل حتى مسافة ١٢ ميل . وقد سر محمد الثانى بهذا المدفع ودفع مدفع أربان الوحشى إلى القسطنطينية يجره ٦٠ ثوراً .

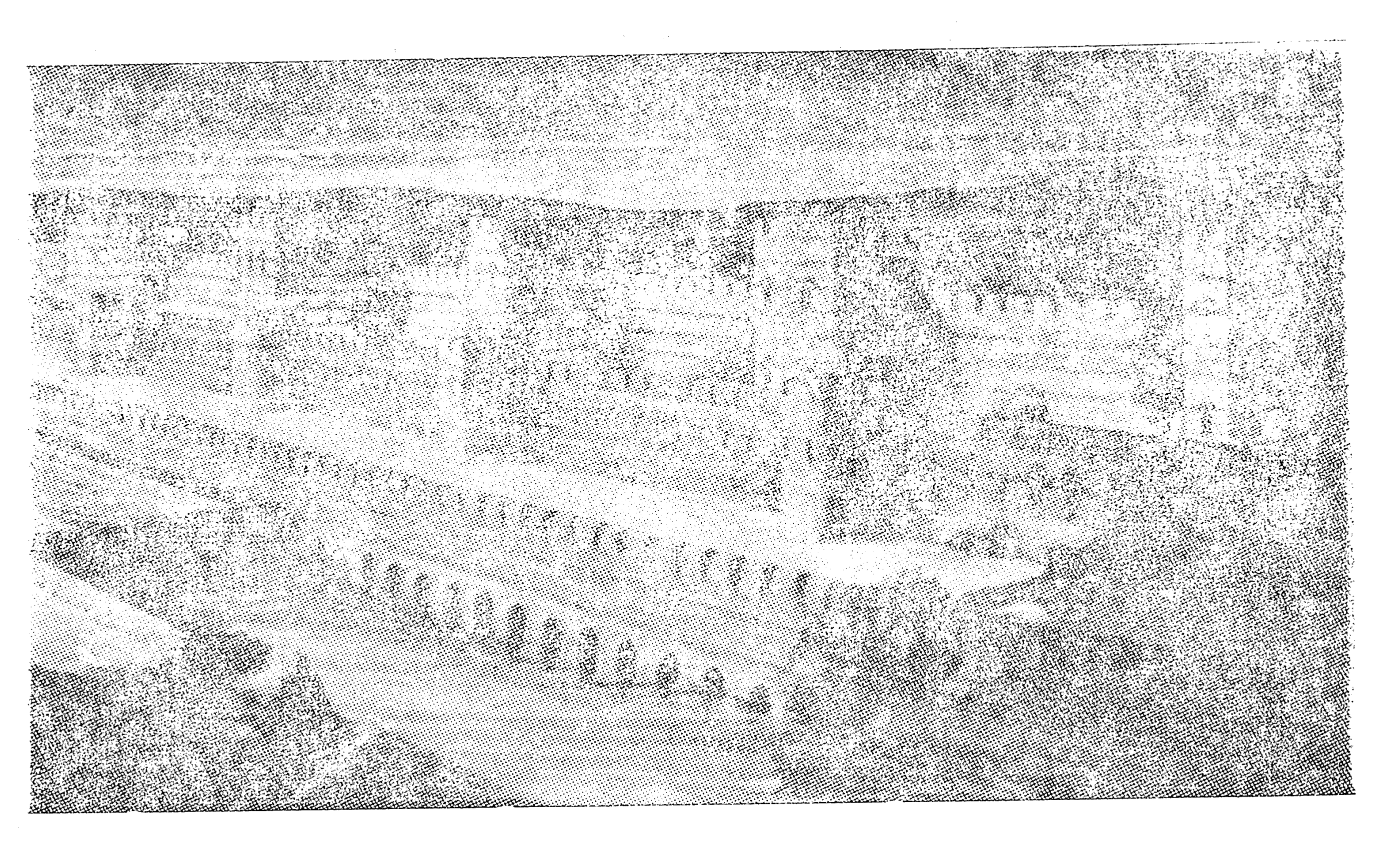
وخلال الحصار تحطم هذا المدفع ولكن لم يهم هذا كثيراً بسبب كفاءة وتأثير باقى المدفعية التركية . وواصل الأتراك القصف بدون توقف لمدة ٦ أسابيع مركزين نيرانهم على أكثر النقط المعرضة فى الأسوار . وكانت مدافعهم تتميز بالضخامة غير العادية ، وكان من الصعب جداً وضع هذه المدافع فى مربضها وخاصة عندما حولت الأمطار الأرض اليابسة إلى أرض رخوة .

---

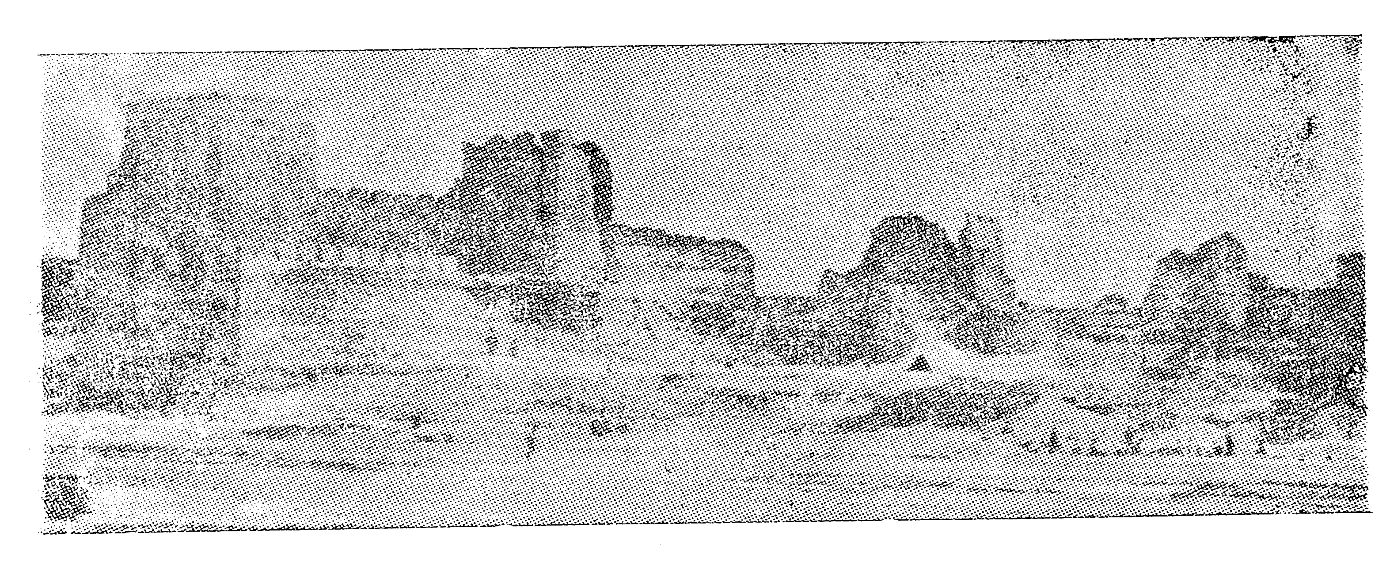
(١) كان أربان يعد من أحسن وأكفأ صناع المدافع فى العالم . « المعرب »

وحيث أن مواسير المدافع كان يصيبها التشقق إذا لم تترك لتبرد بين الطلقات فلم يكن من الممكن إطلاق المدفع الكبير أكثر من سبع مرات يومياً . ولكن القذيفة الواحدة منها كانت تسبب دماراً هائلا .

وفى غضون أسبوع كان السور الخارجى للقسطنطينية قد دمر بالكامل فى عدة نقط ،



أسوار القسطنطينية الثلاث لمقاومة نيران مدفعية الأتراك



بقايا أسوار القسطنطينية اليوم

ولـكن المدافعين بدأوا فى شجاعة نادرة فى إقامة متاريس ترابية وحواجز من القضبان المغروزة خلف السور الخارجى واستمر العمل به ليل نهار ولـكن القصف التركى المنهمر دمر تدريجياً جميع التحصينات .

وبرهن الأتراك على عبقريتهم الفنية بتعويمهم المدافع على أرضيات مربوطة بكوبرى عائم عبر مياه البوق الذهبى ، معززين بذلك عمليات قصفهم من زاوية جديدة ٠ وقد أخطأ محمد مرتين عندما أعتقد بأن القصف التركى قد أحدث تدميراً كافياً ، مما أدى أن الهجوم الأول والثانى التركى لم ينجح ولـكن نجح محمد فى الهجوم الثالث .

وكان الإستيلاء على القسطنطينية مقدمة لتقدم تركى عنيف ملىء بالإثارة والذى أدى إلى عظمتهم العسكرية .

وتم غزو اليونان والصرب خلال ١٥ سنة التالية ، وفى عام ١٤٦٨ إنهارت مقاومة الألبانيين تحت قيادة جورج اسكندربك .

وفى الغرب توقف التوسع التركى بسبب فشل محمد فى الإستيلاء على بلغراد ، أما فى الشرق فقد طهرت « طرابزون » فى عام ١٤٦١ وكانت آخر منطقة مسيحية ذات قيمة فى آسيا الصغرى ، ولم تواصل القتال سوى بعض المعاقل القوية البعيدة والمعزولة فى المورة وآسيا الصغرى مثل قلعة كورديل[١] ولـكن تم تصفية هذه المعاقل تدريجياً . وبالرغم من قسوة محمد على الأفراد وصرامته فى انتزاع الجزية من المسيحيين بأن يقدموا أطفالهم إلى الإنكشارية، فإنه كان فى نواحى عديدة يعتبر فاتحاً متسامحاً غير متعصب . فقد سمح بالديانة الأرثوذكسية ، باستثناء تحول بعض المعابد اليونانية إلى مساجد فى نفس الوقت لم يمس البناء الهندسى للآثار اليونانية والبيزنطية الرئيسية .

وقد ظل البارثون[٢] قائماً حتى الحصار البندقى للاكروبوليس (عام ١٦٨٧) عندما انفجر لأن الأتراك استخدموه كمخزن للذخيرة فتحول إلى انقاض .

---

(١) لقد دافعت عنها فتاة قروية لعدة أسابيع .

(٢) هو هيكل لآلهة أثينا الموجود فى أثينا نفسها . « المعرب »

الحرب بين الاتراك والبندقية

وخلال هـذا الوقت ، فإن التطور فى القوة البحرية فى شرق البحر المتوسط أحدث توازنا مع تقدم القوة التركية على البر .

وفى أول الأمر وكامتداد طبيعى للزحف الغازى المتأصل فى الأتراك فقد نزل بعضهم إلى البحر كقراصنة .

وعندما بدأ التوسع داخل أوروبا فقد بات من الضرورى أن يكون للعثمانيين قوة بحرية ولو حتى لحماية عملية عبور البوسفور .

وفى عام ١٣٥٢ أنشأ العثمانيون رأس جسر عندغاليبولى والتى استغلت بعد ذلك كقاعدة بحرية لهم .

وبعدها أخذت القوة البحرية التركية فى النمو ، وأصبحت هناك سياسة محددة وواضحة لغرض السيطرة على التجارة بين البحر الأسود والغرب وأيضاً لضرب الحصار على القسطنطينية .

وفى هذا الوقت كانت البندقية هى القوة البحرية الأوروبية الرئيسية فى البحر المتوسط. وقد دمر « بيترو لوريدانو » جزءاً كبيراً من الأسطول التركى خارج غاليبولى ، فأصبح الأتراك بصفة مؤقتة محصورين فى شرق تندوس . ولـكن كانت التجارة هى الشاغل الأول للبندقية ولذا بذلت جهداً كبيراً للحفاظ على السلام فى الشرق .

وفى عام ١٤٣٠ انشغلت البندقية فى صراع مع الدول الإيطالية المنافسة ، ومرة أخرى تمكن الأتراك من التقدم غرباً بسبب تفـكك أعدائهم . وفى الواقع ، ومع حلول عام ١٤٥٣ كانت السفن التركية قادرة على ذرع الأدرياتيك ذهاباً وإياباً بدون أى عقبات . وكان من الأسباب الحكيمة التى أعطت الثقة لمحمد الثانى لمحاصرة القسطنطينية هو وجود أسطول قوى لديه يمكنه من قطع المواصلات البحرية للمدينة . وبالطبع لم يكن لدى الأتراك أى تقاليد بحرية محلية خاصة بهم ، ولذا عندما وصلوا إلى البحر المتوسط اتبعوا بدون اى نقد أو تعديل التقاليد البحرية العتيقة لسفن القوادس .

ولم يأخذوا تصميم السفن فقط بل اتخذوا أساليبها التكتيكية أيضاً . وبشكل جوهرى

فلم يحدث أى تغيير رئيسى فى الأسلوب التكتيكى للسفن فى الفترة مابين معركة ليديا عام ٤٩٤ ق . م ومعركة لبانتو عام ١٥٧١ بعد الميلاد .

وعلى كل فقد اقتبس البيزنطيون فكرة السفن ثلاثية المجاديف عن الرومان والأغريق وجعلوها السفينة الرئيسية لأسطولهم واطلقوا عليها إسم « الدرمون » وزادوا من حجمها حتى وصلت حمولتها الطافية من ٧٨ إلى ١٧٥ طن ، كما زاد عدد المجاديف من ١٠٠ إلى ٢٠٠ .

وعندما أفل نجم الدولة البيزنطية أصبحت كل من جنوا والبندقية القوتين البحريتين القائدتين فى البحر المتوسط ، وأطلقوا على سفنهم إسم « القوادس » واستخدموا فيها صفاً واحدا فقط من المجاديف ، ولم يستخدم الشراع إلا فى الإبحار فقط ، أما فى القتال فكان عادة ما يخفض الصارى .

وفى البندقية كان هناك بعض الانتباه الحاسد للتطور الأوروبى فى الأشرعة ، وعليه ظهر الغلياس[1] فى القرن ١٤ .

ولكن نتيجة لعدم الخبرة ومقاومة التجديد استمرت السفن ذات المجاديف فى السيطرة على مياه البحر المتوسط . وكانت تكتيكات القوادس بسيطة ، وقام أمهر ممارسيها ويدعى « روجريو دى لوريا » بتطبيقها حرفياً خلال الحروب الصقلية والتى دارت فى العشرين سنة الأخيرة من القرن ١٣ .

وكان المبدأ الرئيسى فى هذه التكتيكات هو التقدم فى خط أو تشكيل هلالى والاصطدام بسفن العدو بأمل تحطيم أو إعطاب مجاديفها .

وكان يتم قصف السفينة بوابل من القذائف وبعدها يتم اعتلاء السفينة بالصعود على سطحها والإستيلاء عليها وأسرها .

وكان أغلب المقاتلين من حملة المقلاع وحملة القوس النشاب . وقد أدخل بعض التحسينات لمقاومة وسائل إقتحام سطح السفن مثل استخدام صابون سائل لجعل أسطح السفن منزلقة ، وأيضاً استخدام أسهم مشتعلة ذات النصل العريض لتدمير الصوارى والأشرعة . أما التغيير

(١) الغلياس عبارة عن هجين للقوادس والغليون . « المعرب »

الوحيد الذى تم بعد ذلك هو زيادة طفيفة فى حجم سفن القوادس ، وإحلال مدفع صغير محل المنجانيق فى مقدمة السفينة ، ولكن لم تتغير التكتيكات ، واستمرت نتيجة القتال تتوقف على أسلوب الإلتصاق بسفن العدو وتسلق أسطحها .

وعندما استولى الأتراك على القسطنطينية ، فقد حصلوا بذلك على مركز كبير لبناء السفن ،وبذلك فيمكن القول بأن عهد محمد الثانى قد شهد نموا هاما فى القوة البحرية التركية. وسار التقدم للسيطرة التركية على البر ، تقدماً آخراًوموازيا له وهو التقدم والتفوق البحرى حتى وصل إلى أبعد مدى فى الجنوب وذلك بالسيطرة على مياه بحر إيجة وباحتلال العديد من الجزر والسواحل فى شرق البحر المتوسط .

واستولى الأتراك على تجارة البحر الأسود ومنعوا تصدير الإمدادات الحربية والبحرية إلى الغرب .

وقامت الحرب بين الأتراك والبندقية فيما بين عامى ١٤٦٣ ، ١٤٧٩ والتى منيت فيها البندقية بالهزيمة لأنها لم تدرك مقدار سرعة نمو الأسطول التركى ، بالإضافة إلى التفوق العددى للأتراك وعدم معاونة الدول الإيطالية الأخرى لهم نتيجة لحسدهم لثراء البندقية . وفى تلك الحروب ، فكان أعظم المكاسب التى حصلت عليها الأتراك هى استيلائهم على نجور وبونت عام ١٤٧٠ والتى كانت قاعدة البندقية فى الدردنيل ، ثم احتلالهم للساحل الألبانى بعد ذلك بثمانى سنوات .

وفى عام ١٤٨٠ فشل محمد الثانى فى الاستيلاء على رودس والتى كان يدافع عنها فرسان سان جون .

وعندما توفى عام ١٤٨١ كان يجهز الغزو على نطاق أكبر لجنوب إيطاليا . ومن حسن حظ الأوروبيين أن السلطان التالى بايزيد الثانى (١٤٨١ — ١٥١٢) كان رجل سلام لأن الأوروبيين خلال ٣٠ سنة التالية أخذوا يتناحرون من أجل سلب الغنائم الإيطالية مهملين تماماً مسألة الشرق . وبالرغم من ذلك ظل تطور القوة التركية فى البر والبحر مستمرا خلال حكمه .

سليم الاول يغزو مصر (أنظر اللوحة رقم ٢١)

وبالرغم من أن الشعب التركى قدجاب البحار إلا أنه كان يحب المحافظة على القديم وغير مجدد ، ولم يكن لديه أى طموح لمشاركة أوروبا فى التوسع بالمحيطات والذىحدث منذ حوالى عام ١٥٠٠ .

وفى نفس الوقت كان يطمع فى السيطرة على شعوب وتجارة منطقة البحر المتوسط ، لكن لا يمكن أن يتجاهل ازدياد قوة أسبانيا والبرتغال ، لأن القوة الأسبانية أخذت تمد مخالبها على طول ساحل شمال أفريقيا وبطريقة تنذر بالخطر .

ففى عام ١٥٠٩استولى بدر على «نافار»و«أوران» ، وفى العام التالى سقطت طرابلس . وأكثر من ذلك عندما دخلت البرتغال المحيط الهندى بدأ هناك خطر حقيقى فقد أصبح من الممكن أن يطوق الغربيون الأتراك إذا سيطروا على مؤخرتهم وربما يتمكنوا من الإنضمام إلى الفرس[1] أعداء الأتراك .

وفى الحقيقة لم يخطر هدف تطويق الأتراك بخلد الساسة الأوروبيين ، ولكن كان السماح بمثل هذا العمل يشكل خطراً عظيما على الدولة العثمانية .

وعلى كل فقد أعطى سليم الأول القاسى كل إهتمامه خلال حكمه القصير (١٥١٢ — ١٥٢٠) للجبهات الشرقية والجنوبية لإمبراطوريته ، وتم هذا فى وقت كانت فيه أوروبا معرضة أكثر من أى وقت آخر لتلقى طعنة من الخلف ، وهكذا أتيحت لأوروبا فرصة هدوء أخرى على الدانوب والأدرياتيك وعلى كل كان هذا التحول بالتأكيد يتمشى مع هدف الأتراك فى التوسع فى اتجاه أوروبا ، ولذلك لكى يضمن سليم الأول تأمين ظهره ، فقد بدأ أولا فى التعامل مع الفرس واستطاع هزيمتهم عند سهل جان دران الواقع غرب عاصمتهم تبريز ، ولكنه لم يستغل النصر والتقدم داخل الأراضى الفارسية الشرقية ، وبدلا من ذلك فقد بدأ فى تحقيق غرضه الرئيسى ألا هو غزو المماليك فى سوريا ومصر . وإذا ألقيا نظرة على المماليك لوجدنا أن أعدادهم كانت قليلة وليس لديهم أى مشاة كما لم يكن لديهم فى الواقع أى أسلحة نارية بالرغم من أن البندقية حاولت أن تبيع لهم المدافع .

---

(١) أصبح الفرس فى ذلك الوقت على درجة من القوة . « المعرب »



اللوحة رقم ٢١ - الامبراطورية العثمانية

وفى عام ١٥١٦ حقق سليم انتصاره الأول على المماليك عند مرج دابق فى سوريا ، وقد ساعده فى ذلك الخونة فى صفوف أعداءه .

وكما حدث فى « جان دران » فقد حقق له النصر صلابة وثبات مشاته والتأثير الفعال للمدفعية .

وفى عام ١٥١٧ حقق النصر الثانى ودخل مصر . وكان غزو سليم لمصر جزءاً من استراتيجية شاملة تهدف إلى تحقيق السيطرة على شرق البحر المتوسط والشرق الأدنى ، ولتحقيق هذا الهدف كان يجب على القوة البحرية التركية أن تلعب دوراً حيوياً ، ولذا قرر سليم أنه من الضرورى مقابلة التحدى الأسبانى على طول الساحل الشمالى لأفريقيا . وكان احتلاله لمصر هو المرحلة الأولى من هذه الاستراتيجية . وأمكن تعزيز هذه المرحلة فى عام ١٥١٩ عندما استطاع السلطان سليم استمالة « خير الدين باربروسا[1] إلى جانبه وعينه السلطان حاكما على الجزائر .

وقد حقق ايضاً الأتراك السيطرة على البحر الأحمر حتى يستطيعوا صد أى تهديد برتغالى قادم من الجنوب الشرقى . ولكن حتى الآن لايزال هناك ضعفاً بالغاً فى خطوط المواصلات التركية فى منطقة البحر المتوسط ، ذلك الضعف الذى كان مصدره استمرار سيطرة فرسان القديس جون على جزيرة رودس .

ولم يلق الحصار الكبير لقلعة رودس عام ١٤٨٠ بواسطة محمد الثانى سوى الفشل ، ومنذ ذلك الوقت تحسنت دفاعات الجزيرة كثيراً مع تقوية التحصينات بحيث يمكنها الصمود أمام قصف المدفعية .

وأصبح هناك حائطاً ارتفاعه حوالى ٣٠ قدماً وسمكه ٤٠ قدماً وأقيم فى مكان السور الأصلى الساتر .

وكان يوجد بهذا السور شرفات ركبت عليها المدافع ، كما عمق وعرض الخندق المائى المحيط بالقلعة .

أما النقط الخارجية للقلعة فى الجانب الغربى والجنوبى فقد قويت باستحكامات أمامية

---

(١) كان أبرز قراصنة ساحل شمال أفريقيا . « المعرب »

تحميها خنادق أخرى مائية وميول حادة . وبلغ عدد القوات المدافعة ٧٠٠ فارساً بالإضافة إلى عدد آخر من القوات الأخرى والتى رفعت القوة الإجمالية للمقاتلين فى القلعة إلى ٦٠٠٠ رجلا ، كما كان هناك مخزوناً كبيراً من الذخيرة .

ولم يكن هناك أى فرصة للمدافعين عن القلعة لتلقى الإمدادات والتعزيزات من أى مصادر خارجية فى حالة حدوث حصار بواسطة قوة لديها السيطرة البحرية .

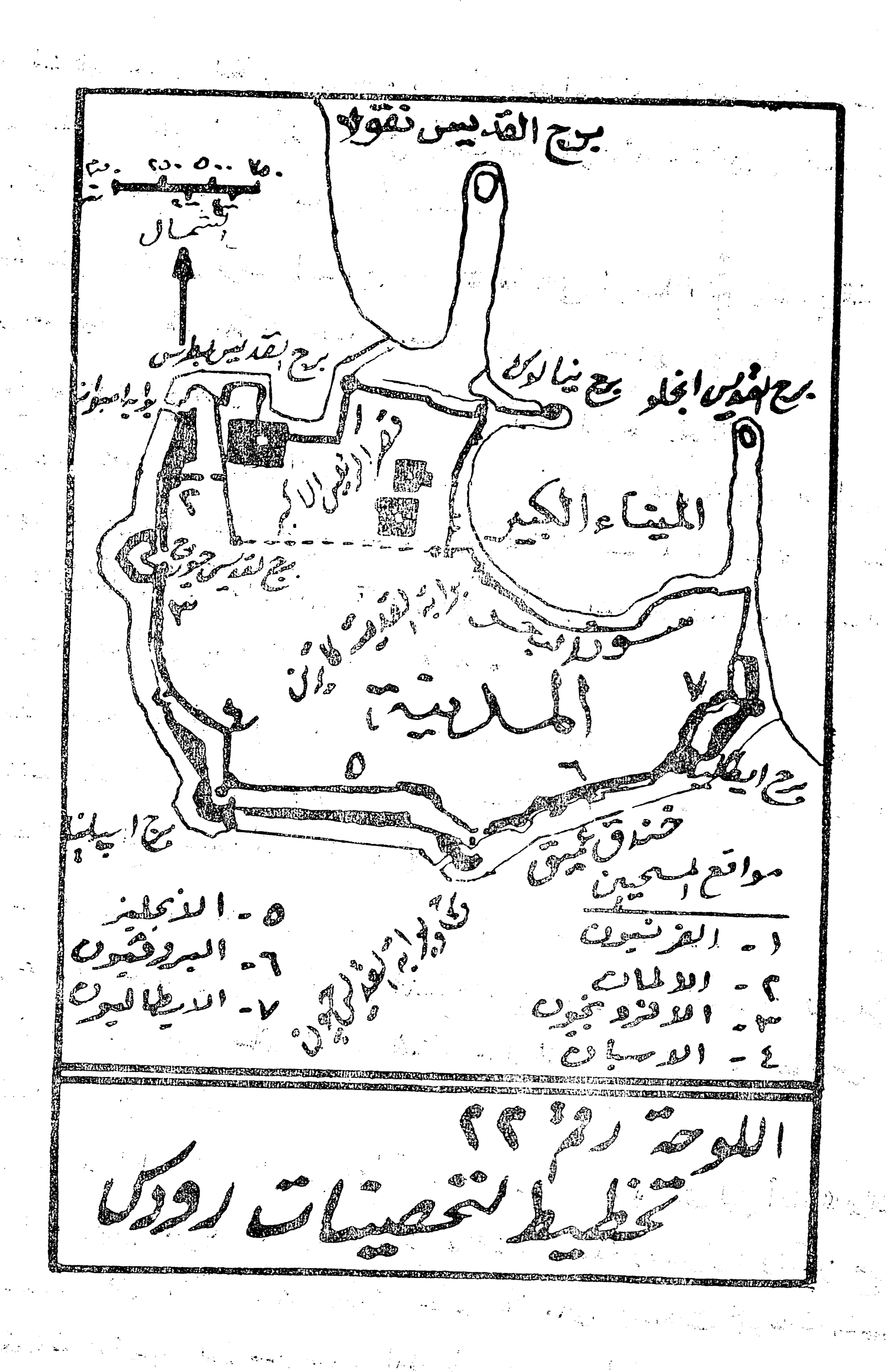
سقوط جزيرة رودس (أنظر اللوحة رقم ٢٢)

فى عام ١٥٢٠ توفى سليم الأول ، ولابد أنه كان واضحاً لدى خليفته «سليمان العظيم» أن مهاجمة رودس والإستيلاء عليها ستكون مهمة بالغة الصعوبة ، ولكن الاستراتيجية التركية كانت تتطلب أن يكون لديهم قلاع فى شرق البحر المتوسط لتأمين خطوط مواصلاتهم، لذلك قرر سليمان فى يونيه ١٥٢٢ القيام بهذه المهمة .

وبدأ الحصار بإنزال قوة بلغت حوالى ١٠٫٠٠٠ مقاتل على الجزيرة ، وكانت هذه القوة مقدمة للقوة الرئيسية للجيش ، وكانت مهمتهم القيام بالتجهيزات للقوة الرئيسية مع إستطلاع مواقع المدفعية الموجودة فى الجزيرة .

وأخيراً تشكلت قوة الحصار من ٥ فرق تركية ، وحوصرت القلعة من البر ، وحفرت الخنادق على أقرب ما يمكن من أسوار القلعة وخارج مرمى نيران المدافعين بقدر الإمكان ، وإنتشرت قوة كبيرة من المدافع التركية الثقيلة حول القلعة بينما أبحرت القوادس التركية لكى تكمل عمليه الحصار .

وقد كان قائدا الدفاع هما الرئيس الأكبر للفرسان « فيليه دى ليل أدام » والمهندس الإيطالى « جبرائيل مارتينيو » . وظلت مقاومة القلعة صامدة وباصرار ، ولكن مع نهاية شهر أغسطس كان الأتراك قد ردموا الخندق الأمامى واندفعت مجموعات منهم نحو الاستحكامات الرئيسية تحت ستر قصف المدفعية ورد عليهم المدافعون بقصف مضاد . وظل هدير المدافع ينطلق من الجانبين ، ثم دار اشتباك متلاحم مستميت بين جنود الطرفين ، وقد فقدت مواقع ثم استردت ثم فقدت ثانية . وبشكل عام صد المدافعون أربع هجمات للأتراك خلال شهر سبتمبر .



اللوحة رقم ٢٢

تخطيط لتحصينات رودس

وفى أكتوبر أطلق الأتراك بثلاث هجمات أخرى ، ثم قاموا فى نوفمبر بهجوم عام ضخم ، ولكن كانت كلها غير ناجحة . ولكن بالرغم من ثبات المدافعين عن القلعة إلا أن عددهم نقص حوالى المنصف بالإضافة إلى نقص الذخيرة والطعام بشكل خطير .

وفى الجانب التركى بدأت تثبط عزيمة سليمان ، كما سأم جيشه القتال . وإقترب الشتاء ولذلك قرر سليمان عرض شروط سخية إذا استسلمت القلعة ، وقبلت القلعة عرضه . وأقيمت هدنة لمناقشة التفاصيل والتى كانت تتلخص فى إمكان الحامية الرحيل بكل ممتلكاتها ، كما وعد سليمان السكان الذين يرغبون فى البقاء بمعاملة طيبة . وفى ٢١ ديسمبر أى بعد الحصار بستة أشهر تم التصديق على معاهدة الاستسلام . ولم يبق على قيد الحياة فى القلعة بعد هذه المعركة سوى ١٨٠ فارس و ١٥٠٠ من باقى الرتب الأخرى . وقد نفذ سليمان وعده ورحل الفرسان إلى مالطة وعومل من بقى من السكان معاملة كريمة . وقد كان دفاعا عظيما ونبيلا .

وقد أنقذ قبول الرئيس الأكبر للفرسان شروط سليمان الكريمة ، سكان الجزيرة من النهب والقسوة التركية . وقد حقق الأتراك ما كانوا ينشدونه من ضمان السيطرة التركية على شرق البحر المتوسط والتى توافق تماما استراتيجيتهم .

العثمانيون يحاصرون فينا

والآن وبعد أن إنتهى السلطان من مهمته فى رودس ، فقد أصبح شاغله الرئيسى تطوير النظام الداخلى للامبراطورية وبالرغم من ذلك فكانت فترة حكمه أيضاً فترة توسع بحرى وعسكرى . وفى عامى ١٥٢٥ — ١٥٢٦ قاد حملة تركية رئيسية على جبهة الدانوب ، والتى كانت الأولى من ضمن سلسلة حملات تركية كثيرة خلال الخمسين سنة التالية . ولم تلق تلك الحملة أى مقاومة موحدة سواء من بارونات الحدود ولا من دول شرق أوروبا . وبالرغم من توفر فترة إنذار كبيرة ، فالهنغاريون لم يجهزوا جيشاً قويا فى الوقت الذى وصل فيه الأتراك إلى بلغراد فى يولية ١٥٢٦ . وعلى طول الدانوب فقد دافعت بعض القلاع دفاعا مستميتاً ، ولكن الجحافل التركية كان تعدادها أكبر بكثير من العدو . وفى ٢٩ أغسطس تقابلت جيوش سليمان والملك لويس ملك هنغاريا عند سهل موهاكس . واصطف جيش

سليمان البالغ تعداده ٧٠٫٠٠٠ رجل فى تشكيل عميق . وكان الأتراك يشكلون قواتهم بهذا العمق فى جبهاتهم الشرقية . وكان التشكيل يتكون من خطين من الفرسان يدعمهما الانكشارية والسباهى وإنتشرت المدفعية خلف هذه القوات . أما الجانب المسيحى فكان الجيش يتكون من ٣٥٫٠٠٠ رجلا وقد اصطف فى خطين طويلين كل منهما عبارة عن خليط من الفرسان والمشاة .

وقامت الفرسان الهنغارية بهجومها الأول مما أدى إلى بث الفوضى والاضطراب بين صفوف فرسان الأتراك ، فعلى الفور أمر لويس بالتقدم العام ولكنه أساء تقدير عمق الجيش التركى ، وكان نتيجة هذا الخطأ أن الانكشارية دمرت بسهولة صفوة الجيش الهنغارى والتى اخترقت مؤخرة الفرسان التركية وا كتمل النصر ، ولقى الكثير من الزعماء الهنغاريين والبوهيميين مصرعهم . والآن، لم يعد هناك أى عائق يقف فى طريق الأتراك إلى فينا . وفى عام ١٥٢٩ زحف الأتراك بالسيف والنار وحاصروا فينا . ولكن الدفاع المستميت عنها وهجوم الشتاء جعلا سليمان يرفع الحصار ، خاصة وأنه أصبح الآن بعيداً جداً عن الوطن . وعلى ذلك فإن الحدود الفعلية الغربية للإمبراطورية العثمانية ، لم تمتد أكثر من خط يمتد من زناج على الأدرياتيك ثم إلى الشمال الشرقى حتى جران على الدانوب .

مؤذن وقائد اسطول (أنظر اللوحة رقم ٢١)

بينما قام سليمان بتوسيع جبهة الإمبراطورية الجنوبية الشرقية حتى البصرة ، فكانت العراق (أرض الجزيرة) فى حد ذاتها مكسباً ثميناً ، لأن حصوله على ميناء يطل على الخليج الفارسى قد دعم الاستراتيجية البحرية التركية فى الصراع ضد البرتغاليين والذى ورثه سليمان من سليم الأول . وفى عام ١٥٢٦ تحالف سليمان مع « باهادور »[1] . وفى عام ١٥٣٨ أنطلق أسطول تركى كبير لحصار البرتغاليين فى « ديو » ولكن الحملة لم يقدر لها النجاح ، مما أدى أن الأتراك نبذوا سياسة اعتراض سبيل البرتغاليين فى المحيط الهندى ، وعلى أى حال فقد وجد الأتراك أنهم قد بالغوا فى تقدير الخطر فى هذا الإتجاه حيث أن البرتغال لم

---

(١) هو ابن طاهر الدين محمد الشهير ببابر صاحب دلهى وكان أميراً لولاية جوجارات الهندية .
« المعرب »

تكن مهتمة بإقامة إمبراطورية برية بل كان يهمها أكثر من ذلك تحقيق مكاسب سلبية والتى تجلبها تجارتها البحرية .

ولكن كانت المنافسة على قدم وساق فى البحر المتوسط بين الأتراك وأسبانيا بعد أن حلت أسبانيا محل البندقية كقوة بحرية أوروبية عنيفة ورهيبة ، ولذلك تابعت القوة التركية البحرية فى حكم سليمان توسعها غربا بقوة ونشاط . وكان وكلاؤها الرسميين هم القراصنة من البربر وخاصة خير الدين باربروسا ، الذى سرعان ما بنى أسطوله ووسع من نشاطه . أما الأدميرال الشهير « أندريا دوريا »[١] كان فى خدمة أسبانيا وقاد أسطولا مسيحياً مشتركا ولكنه هزم عند « بريفيا » أمام الساحل الألبانى فى عام ١٥٣٨ . ومن ثم اعترفت البندقية بالسيطرة التركية على البحر المتوسط شرق إيطاليا ، ولم يحدث بصفة فعلية أن استطاعت أى قوة بحرية أن تقف أمام خير الدين باربروسا فى الفترة من ١٥٤١ حتى وفاته عام ١٥٤٦ . ومع حلول عام ١٥٥١ كان لدى الأتراك قائدا جديدا هو القرصان « طرغول » والذى استولى على طرابلس كما ألحق بأندريا هزيمة نكراء . وأخيراً تم الصلح بين فرنسا وأسبانيا عام ١٥٥٩ ، ولكن الحرب لم تتوقف بين أسبانيا والقراصنة الأتراك . ولقد جاهد أيضاً فيليب الثانى ملك أسبانيا لزيادة قوة وحداته البحرية وذلك فى كل من الأطلنطى والبحر المتوسط .

وفى عام ١٥٦٥ بدأ المد فى التحول أخيراً ، ففى هذا العام بذل الأتراك محاولة ضخمة للاستيلاء على مالطة ، والتى تعتبر المركز الحيوى الحاكم للمواصلات بين شرق وغرب البحر المتوسط والتى كان لايزال يتشبث بها فرسان القديس جون . واستطاع الفرسان الصمود حتى وصل الأسطول الأسبانى لتحرير الجزيرة . وقد لقى طرغول مصرعه خلال القتال . وكم كان ابتهاج الغرب بذلك ، ولكنه كان ابتهاجا حذراً لأنه كان يبدو من المؤكد أن الأتراك سينتقمون انتقاما رهيباً فى العام التالى .

ولكن فى عام ١٥٦٦ مات سليمان وخلفه سليم الثانى السكير . وفى عام ١٧٥٠ حول سليم اهتمامه إلى قبرص والتى كانت أهم وآخر معقل بندقى ، وهرعت البندقية تطلب العون

---

(٢) لقد ولد فى البندقية . « المعرب »

من روما وأسبانيا . وفى مايو ١٥٧١ شكلت القوى الثلاث[١] تحالفاً دائماً ، وأنفقت القوى الثلاث على تجهيز أسطول مشترك تحت قيادة دون جوان[٢] البالغ من العمر ٢٦ عاماً ، وفى نهاية أغسطس عام ١٥٧١ تجمع الأسطول المسيحى تحت قيادة دون جوان فى مسينا ، وفى ١٦ سبتمبر أبحر فى اتجاه « كورفو » . وفى نفس الوقت كان يتجمع أسطول تركى عند ليبانتو فى خليج كورنثه ، تحت قيادة الأدميرال « على باشا »[٣] . وكان الأسطول المسيحى مكوناً من أكثر من ٢٠٠ قادس و ٦ غلياس و ٢٤ سفينة نقل كبيرة و ٥٠ سفينة خفيفة تعمل بالمجاديف ، أما إجمالى البحارة فقد وصل إلى ٥٠٫٠٠٠ بحار ، وقد عمل هؤلاء تحت ظروف قاسية ومروعة ، فقد قيد معظمهم بالأغلال فى مقاعد التجديف ، أما عدد المقاتلين فقد وصل إلى ٣٠٫٠٠٠ وكان معظمهم وأفضلهم من الأسبان .

أما الأسطول التركى ، فكان أكبر بعض الشيء إذ بلغ ٢٥٠ قادس و ٤٠ غليون و ٢٠ سفينة تجديف صغيرة وكان إجمالى المقاتلين حوالى ٢٥٫٠٠٠ رجل ، والتغيير الوحيد الذى طرأ على القوادس منذ القرن ١٣ هو زيادة الحجم والتسليح ، وأصبحت حمولة القادس ١٧٠ طناً بينما كانت حمولتها قبل ذلك ١٤٠ طناً ، بينما زاد طولها من ١٢٨ قدماً ليصبح ١٣١ قدماً كما أصبح بها ٧٥ مجدافا بدلا من ٦٠ مجدافا .

وكانت سفن الجانبين متماثلة أساساً فى النوع ولكن يوجد بعض الاختلافات الفنية الهامة ، فقد كان بالقادس المسيحى ٥ مدافع مركبة فى المقدمة وتطلق نيراناً مباشرة للأمام بينما كان بالقادس التركى ٣ فقط .

ولم تكن هناك سفن من نوع « الغلياس » إلا فى الأسطول المسيحى والتى تحمل ٢ مدفع فى الأمام و ٦ فى المؤخرة و ١١ مدفع أخف على كل جانب . كما كان جنود الأسطول المسيحى أفضل تسليحاً إذ يحمل معظمهم القرابين ، ولكن فى نفس الوقت كان القوس

---

(١) البندقية وروما وأسبانيا .

(٢) وهو الأخ الغير شقيق لملك أسبانيا .

(٣) كان يعمل مؤذناً وأعجبت بصوته إحدى زوجات السلطان ، فارتفع بمساعدتها حتى أصبح قائداً للأسطول .

التركى سلاحا قوياً وذو معدل أسرع من النيران . وهكذا كان لدى الأتراك سفناً أكثر وهيبة أكبر ، ولكن من المؤكد أن المميزات الفنية كانت فى الجانب المسيحى .

قطع راس على باشا (أنظر اللوحة رقم ٢٣ ا ، ب)

وفى صباح ٧ أكتوبر عام ١٥٧١ شاهد الأسطولان بعضهما أمام مياه « سكروفيا »[١] وتأهب الطرفان للقتال . وكان الأسطول المسيحى يتشكل فى ثلاثة مجموعات تسير جنبا إلى جنب فى خط وينتشر على مواجهة حوالى ٤ أميال وكان دون جوان فى الوسط ويقود ٦٣ قادساً ، وإلى اليسار كان « أجستينو بارباريجو » يقود ٦٣ قادساً أيضاً وإلى اليمين كان « جيوفانى أندريا دوريا » يقود ٦٤ قادساً ، أما فى الاحتياط فقد كان المركيز « سانتا كروز » يقود ٣٥ قادساً . وإلى الأمام على مسافة ½ ميل انتشرت ٦ غلياس فى مقدمة جميع الأسطول .

أما الأتراك فقد تشكلت فى ثلاثة مجموعات رئيسية ، ٩٠ قادس فى المنتصف تحت قيادة على باشا وفى اليمين ٥٥ تحت قيادة محمود باشا وفى اليسار ٦٠ تحت قيادة علوش باشا ، أما فى الاحتياط فكان يوجد ١٠ قوادس و ٢٠ فوستا[٢] ، ولكن تشكيل الخط التركى كان أطول من الخط المسيحى .

وقام قائد كلا الجانبين بالتفتيش على أسطوله ، حاضين رجالهم على الاستبسال فى القتال موقدين حماسهم الدينى ومثيرين جشعهم وحبهم للمال . ومن على سطح سفينة القيادة نادى دون جوان على عازفى الأبواق وأخذ يرقص بمرأى من الجميع وهو يرتدى كامل دزوعه رقصة الغليارة[٣] .

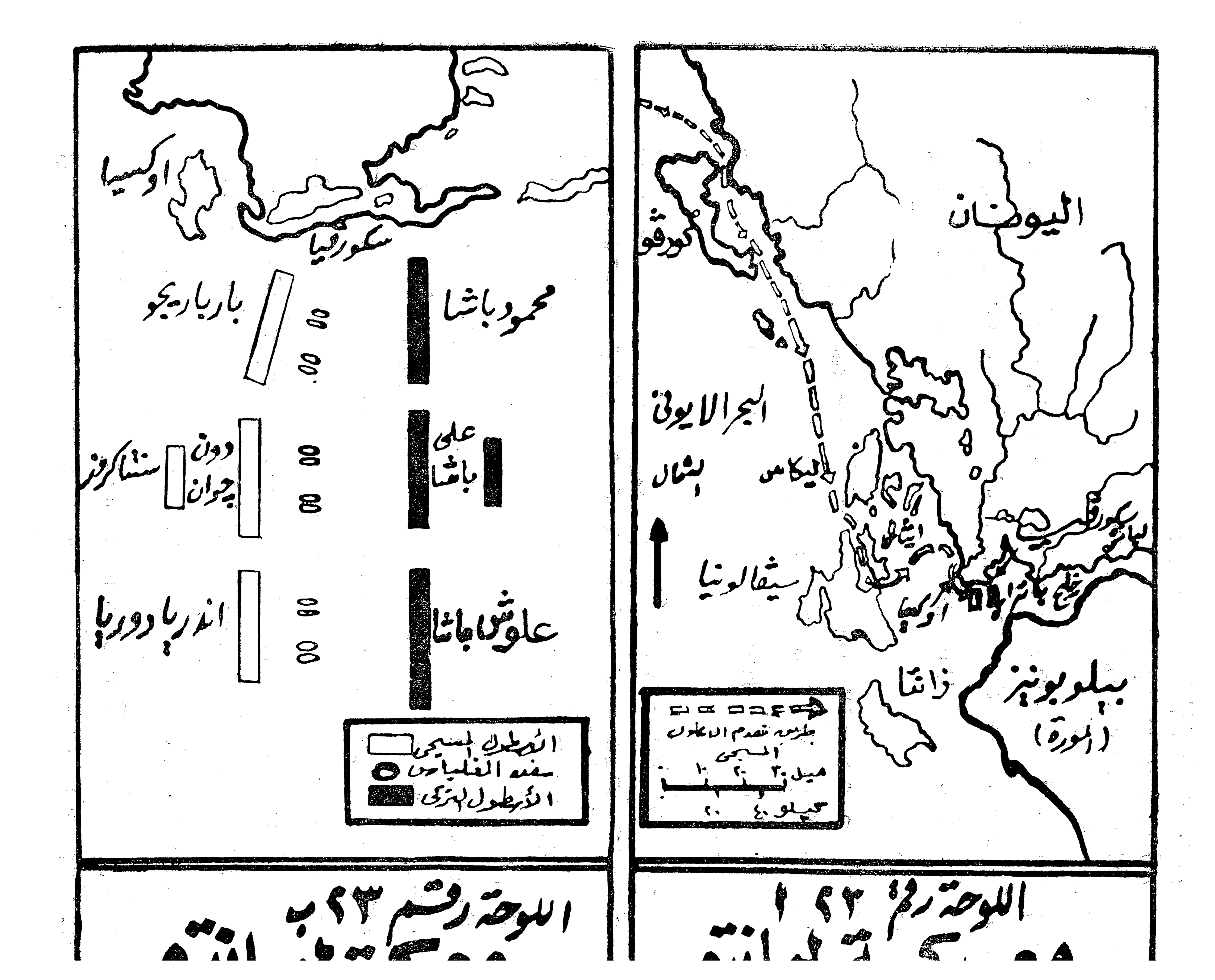
وماهى إلا لحظات حتى اندلعت المعركة فى الساعة العاشرة صباحا . ووقع الاشتباك الأول فى الشمال قرب الشاطىء حيث دفع للأمام كل من اليسار المسيحى واليمين التركى . وأطلق غلياسان مسيحيان النيران ثلاث مرات وبعدها غرق قادس تركى . وكانت سفن

---

(١) فى فم خليج كورنثة وتقع غرب لبانتو بحوالى ٢٥ ميلا .

(٢) سفينة خفيفة تعمل بالمجاديف .

(٣) رقصة مرحة قديمة . « المعرب »



اليونان
كورفو
البحر الايوني
الشمال
سيفالونيا
زانتا
بيلوبونيز
(المورة)
طريق تقدم الاسطول المسيحي
ميل ٣٠ ٢٠ ١٠
كيلو ٤٠ ٢٠
اللوحة رقم ٢٣ ا
اوكسيا
سكورفيا
باربا ريجو
محمود باشا
علي باشا
دون جوان
سنتاكروز
اندريا دوريا
علوش باشا
الاسطول المسيحي
سفن الغلياس
الاسطول التركي
اللوحة رقم ٢٣ ب

الغلياس المسيحية مسلحة بدرجة كبيرة ومرتفعة عن سطح الماء بحيث أصبح من الخطورة والصعوبة أن يتسلقها الأتراك . وكان أمل الأتراك أن يقوموا بعملية مرور سريعة خلال الأسطول المسيحي. ولـكن عندما تقدمت سفن الغلياس التركية تراجعت سفن الغلياس المسيحية إلى الخلف ودارت ببطء فى الإتجاه الآخر وأخذت تصب بنيران مدافعها حشود القوادس التركية ، مما نتج عنه عندما تقابلت مع المجموعة الرئيسية المسيحية كان معظم السفن التركية قد أصابها العطب وأنتشرت الفوضى بالخط التركى .

وعندما تقابل الطرفان دار قتال يائس صاخب لمدة ساعة ولقى بارباريجو مصرعه ولـكن المسيحيين لم يفزعوا لذلك واستمروا فى القتال بينما بدأ الضعف يحل بالأتراك . ويبدو أن بعض العبيد المسيحيين تمكنوا من الإستيلاء على بعض الأسلحة وحطموا بها أغلالهم وانضموا إلى القتال ضد الأتراك . وقد أغرى قرب الشاطىء الكثير من الأتراك على الفرار إلى الشاطىء حيث تعقبهم المسيحيون ، واكتمل النصر فى اليسار ، حيث أسرت أو أغرقت جميع السفن التركية هناك .

فى نفس الوقت ، كانت المعركة قد اندلعت فى المنتصف ، واشتعل القتال بصورة خاصة حول سفينتى القيادة لـكلا الجانبين ، وتوجهت كلا منهما نحو الأخرى لتمسكا ببعضهما ، وتعالت الصيحات وارتفع الضجيج من طلقات القرابين ووابل السهام وضرب المدفعية . ودار قتال بشكل عام بالسيوف يحاول كلا الجانبين إعتلاء سفينة الآخر ، وانتشر القتال حتى شملت حوالى ٢٥ إلى ٣٠ سفينة فى منطقة لا تتجاوز مساحتها ٢٥٠ × ١٠٠٠ ياردة .وأكثر من مرة وصل رجال على باشا واحتلوا مقدمة سفينة دون جوان ، ولـكن « سانتا كروز » الذى لم تغب عينيه عن المعركة قد أرسل ٢٠٠ رجل مسيحى إلى سطح سفينة دون جوان لتعزيزها ، واستمر القتال عنيفا لأكثر من ساعة ونصف، وببطء بدأ المسيحيون يمسكون بالزمام ، ولـكنهم طردوا ثلاث مرات خارج سطح قادس على باشا إلا أنهم نجحوا فى إجتياحها وتحطيمها وقتل معظم الأتراك بنيران القرابين ، واستولى دون جوان على العلم التركى وسحب سفينة قيادة على باشا مربوطة فى سفينته ، أما على باشا فقد قطعت رأسه فى نهاية القتال . وفى الساعة الواحدة بعد الظهر كان المسيحيون قد حققوا النصر كاملا فى المنتصف .

ومنذ البداية وقد أدرك « جيوفانى أندريا » أن هناك خطورة من أن يطوقه الخط التركى الأكثر إمتداداً ولذا أخذ يتحرك تدريجياً نحو الجنوب ، وبدأت المعركة وهو لايزال يناور بمجموعته ،وقد أدى تأخير « جيوفانى » فى الاشتراك فى المعركة أن بعض قادته المرؤوسين شكوا فى شجاعته . ولكن دارت للخلف ١٥ سفينة من التى على يسار مجموعته لتنضم إلى معركة المنتصف ، وبالتالى ترك علوش باشا محاولة تطويق المسيحيين وأسرع خلف السفن المنشقة ، وسرعان ما أغرق ١١ سفينة من هذه السفن المنشقة نتيجة لتفوقه العددى بنسبة ١:٥ . ولكن أفسد هذا النصر إلى حد ما القائد المسيحى « هوبندتو سورانزو » عندما فجر مخزن ذخيرة سفينته مدمرا بالتالى العديد من السفن التركية بالإضافة إلى سفينته .

والآن تحرك علوش إلى المنتصف ، ولكنه عندما وصل وجد أن المعركة قد انتهت وخسرها الأتراك . وهناك هاجمه جيوفانى من الخلف بينما هاجمه إحتياطى « سانت كروز » من زاوية أخرى ، فعلى الفور ترك علوش الصراع الغير متكافىء وخلص نفسه بكل سرعة وانطلق بعيدا عن المعركة .

وفى الساعة الرابعة بعد الظهر كانت المعركة قد انتهت ، وبدأ الطقس يسوء بطريقة تنذر بالخطر ، وركز المسيحيون جهدهم فى تأمين غنائمهم والبحث عن ميناء أمين . وبلغ مجموع السفن القوادس التركية التى وقعت فى الأسر وفى حالة صالحة للاستعمال ١١٧ قادس بالإضافة إلى ٢٧٤ مدفعا .

وتعتبر معركة لبانتو مفيدة لأسباب عديدة ، وقد كتب أوليفر وارنر فى « معارك البحر العظيمة » قائلا :—

« فى معركة ليانتو ، وكما هو فى معظم المعارك البحرية الأولى ، كانت الأساطيل مثل الجيوش ، فقد كانت تشكيلاتها جامدة بينما كان القادة عسكريين ، وقد بنيت التكتيكات على الخبرة المستمدة من التجارب على الأرض .

أما البحارة فكان واجبهم فقط توجيه السفن إلى حيث يطلب منهم ، أما القتال فكان يخوضه القادة والجنود . »

موت النظام العسكرى التركى

إذا عدنا إلى « دون جوان » لوجدنا أنه تلقى تدريبه الأول كجندى . وفى الواقع كانت معركة لبانتو أول وآخر معركة بحرية رئيسية له ، ولكنه كان قد اكتسب خبرة أثناء قتاله ضد القراصنة الجزائريين وكذا ضد المغاربة فى غرناطة . وتوفى دون جوان بعد معركة لبانتو بسبع سنوات فى الأراضى الواطئة . ومهما كانت الآراء حول مقدرته على قيادة الأسطول فى المعركة ، فإنه بالتأكيد كان قائدا عظيما .

فقد كان عليه أن يتغلب على مشاكل ومصاعب أسطوله المشاكس المحب للنزاع والخصام . فقد كان الجنويون والإيطاليون منافسين قدماء ، كما بدأت المتاعب والمصاعب عندما سد النقص الموجود فى القوة البشرية بسفن البندقية بقوات إيطالية وأسبانية وأدى هذا إلى حد التضارب والتقاتل مع حلفائهم . واحتاج الأمر إلى دبلوماسية وحزم من جانب دون جوان لكى يستطيع جمع الأسطول فى جهاز مقاتل ثم الإبقاء عليه هكذا . وكان تلقينه لقادته المرؤوسين شاملا ولاذعا ، وكان يستخدم سبورة فى شرح الأساليب التكتيكية التى ستستخدم فى مختلف الاحتمالات فى المعركة .

وفى النهاية ، أبحر يطوف حول أسطوله فى سفينة شراعية سريعة مظهرا نفسه لرجاله رافعا من روحهم المعنوية .

ولقد كانت لبانتو نصراً سلبيا ، فهى وإن كانت قد منعت وجود سيطرة تركية كاملة على غرب البحر المتوسط إلا أنه لم يتبعها هجوم إستراتيجى من القوى المسيحية ولذلك سرعان مابنى الأتراك أسطولا جديدا . واستمر الأتراك فى بث الرعب فى مياه البحر المتوسط حتى الأعوام التالية لعام ١٦٥٠ عندما بدأت الأساطيل الإنجليزية والهولندية العمل فى هذه المنطقة .

وعلى أى حال فقد تدهورت القوة البحرية التركية وكان السبب الرئيسى فى ذلك الفشل فى متابعة التقدم والتطور التكنولوجى فى أوروبا . فقد استمر الأتراك والإيطاليون فى إستخدام القوادس حتى بداية القرن ١٩ .

ولم يصب التصدع القوة البحرية التركية فحسب ، بل كان هناك تصدع أكثر خطورة

فى الجيش التركى نفسه وكان لنفس سبب التخلف التكنولوجى . وكمثال فعندما تطورت الأسلحة النارية فى أوروبا الغربية بإدخال أنواع جديدة من مدفعية الميدان علاوة على إدخال السونكى . فقد فشل الأتراك فى ملاحقة هذا التطور وتطويعه بما يلائمهم ، بل ظلوا على ضعفهم التكنولوجى القديم والممثل فى إنتاج مدافع ضخمة يصعب تشغيلها ، علاوة على وجود ضعف كبير فى القيادة التركية ، فإن سليم السكير الذى حكم فى الفترة ما بين ١٥٦٦ــ٤ ١٥ كانت تعوزه المقدرة ، ومن بعده جاء الكثير من السلاطين الذين تركوا مسئولياتهم كحكام وكقادة ميدانيين ، وانغمسوا فى الملذات تاركين نظام الدولة ينهار . وجاءت لحظة حاسمة فى عام ١٥٨٢ عندما أجبر مراد الثالث الانكشارية على أن يقبلوا فى صفوفهم المصارعين والبهلوانات الذين أدخلوا البهجة والسرور على الشعب أثناء إحتفالات ختان ابنه .

وكانت النتيجة انهيار الضبط والربط والروح المعنوية والكفاءة القتالية . وفى عام ١٦٦٤ عند « سان جوثار » فى هنغاريا ألحق الألمان تحت قيادة « مونت كوكوللى »[1] هزيمة ساحقة بالأتراك .

وكانت هذه الهزيمة نقطة تحول حاسمة فى التاريخ العسكرى التركى ، كما أن حصار فينا عام ١٦٨٣ كان آخر إستعراض عدوانى يقوم به الأتراك فى أوروبا والذى لم يلق سوى الفشل .ومع حلول القرن ١٨ وصل الحال بالأمبراطورية العثمانية إلى أنها أصبحت غير قادرة حتى على حماية حدودها .

وفى النهاية مات النظام العسكرى التركى عام ١٨٢٦ وذلك عندما تمردت الإنكشارية مما دفع السلطان محمد الثانى أن يحمل العلم المقدس للواء محمد (عليه الصلاة والسلام) ويقود بنفسه أهل القسطنطينية لقمعهم .

وإستمرت سلالة أرطغول فى إحتلال العرش التركى من بعده حتى عام ١٩٢٢ . ولكن منذ عام ١٨٢٦ فيمكن أن نقول أن الجيش التركى أصبح من نفس نوع جيوش أوروبا .

وإلى هذا الحد . . وحتى هذا التاريخ ، فسوف نترك الأتراك ، ولكن سوف نقابلهم مرة أخرى .

---

(١) لقد تعلم كل دروس حرب الثلاثين واستفاد منها فى قتاله مع الأتراك . « المعرب »

الفصل الثانى عشر

الحروب الأوروبية فى القرن السابع

بيع القوى البشرية

يتناول هذا الفصل موضوع فن الحرب فى فترة كل من حرب الثلاثين عاماً والحرب الأهلية الإنجليزية والحروب البحرية الأنجلو ـ هولندية. وهى مرحلة غير قائمة بذاتها تاماً ، لأنه كان هناك تطورا متواصلا منذ حرب « موريس ناسو » إلى الحروب التى حدثت فى عصر « مارلبورو » .

جوستاف أدولف

ولكن من المفيد دراسة سنين القرن ١٧ فى حد ذاتها . وقد أنجبت هذه الفترة شخصية لامعة واحدة هو « جوستاف أدولف » ملك السويد وهو أحد القادة العظام ، كما كانت أيضاً غنية بالقادة البريين والبحريين ولكن كانوا أقل تألقاً بكثير من جوستاف ولكنهم كانوا ممتازين وهم « والنشتين وبابنهايم وروبرت وكونديه وتورنى وكروموبل وترمب وبلاك » .

وقد رأينا أن الفترة السابقة لهذه الفترة بزغت الأسلحة النارية وثبت نجاحها ، ولكن فترتنا الحالية أنبثقت فيها التكتيكات الحديثة والوسائل التكتيكية لإستخدام الأسلحة النارية ، بالإضافة إلى ذلك التوسع الكبير ومدى ومجال الحرب ممثلة فى التنظيم والاستراتيجية وكذا التأثير السياسى والإجتماعى والإقتصادى على الحياة القومية .

وكان من التطورات المذهلة للقرن ١٧ هو الزيادة الضخمة فى حجم الجيوش . ونذكر هنا أن الجيش الذى سيطر به فيليب الثانى على غرب اوروبا كان تعداده ٤٠٫٠٠٠ رجل

بينما إحتاج لويس الرابع عشر إلى ٤٠٠٫٠٠٠ رجل لتحقيق نفس الغرض .وكان أساس هذه الزيادة يرجع لإتساع مدى الإستراتيجية وتزايد ثروات الدول .

وكان على كل الدول التي ترغب في البقاء أن تنضم إلى سبق الـكمية ، فحتى الدول الصغيرة إنضمت إلى السباق مثل براندبرج التي زادت عدد جنودها من ١٩٠٠ إلى ٨٠٫٠٠٠ وذلك خلال مائة سنة فقط .

وأصبحت تلك الجيوش إلى جانب زيادة حجمها ، جيوشاً دائمة . وأصبحت عادة معظم الدول الإحتفاظ بأفضل قواتها في إطار نظام ثابت على طول مدار السنة وذلك لسببين :—

١ ـ أن التكتيكات الجديدة تحتاج إلى مدة أطول للتدريب .

٢ ـ أن هذه الطريقة أكثر إقتصاداً بالنسبة للدول .

زد على ذلك أن هذه القوات كانت تحمى الحدود وتكون مستعدة لحملات الشتاء .

ومع زيادة نطاق الحرب ، فقد كبرت بالتالى إلتزاماتها الإقتصادية وأصبح الأمر باهظ التكاليف. ولكى تكون الدولة العسكرية ذات كفاءة قتالية عالية كان ذلك يكلفها كثيراً ، لذلك خصص جوستاف أودلف أكثر من نصف ميزانيته للنفقات العسكرية ، أما بالنسبة للمناطق التي يقيم فيها الجيش سواء أكانت معادية أو صديقة ، فكانت مواردها من الطعام والوقود والإحتياجات الأخرى تمتص حتى الجفاف .

ولكن كانت هناك فوائد بالرغم من ذلك ، فالحاجة إلى إطعام الجيوش الكبيرة كان حافزا لتنشيط الزراعة ، كما أدت مطالب التسليح إلى خلق مجال للتوسع الصناعى . فالسويد على سبيل المثال وجدت إستخداماً مربحاً لثرواتها الطبيعية من النحاس والقصدير والحديد ، وغاباتها الشاسعة المنتجة للفحم النباتى وأنهارها التي يمكن أن تقدم الطاقة وتوفر النقل .

وقد لعب التاج دوراً فعالا فى تطوير صناعة الأسلحة ، وأصبح الخبراء الأجانب من أصحاب النفوذ فى هذه المشاريع .

وفى الفترة بين ١٦٢٦ و ١٦٤٦ إرتفعت صادرات السويد من المدافع الضخمة المصنوعة من الحديد المسبوك من ٢٢ طن مترى فى السنة إلى ١٠٠٠ طن مترى . وساعد هذا التصدير أيضاً على تطور صناعة السفن السويدية ووسائل الشحن . وأكثر من ذلك فقد وفرت الحرب مصدراً رئيسياً للعمل ، سواء فى القوات المسلحة أو فى الوظائف الحكومية كما أصبح من الممكن للبلاد الصغرى والفقيرة مثل سويسرا واسكتلندا أن تبيع القوى البشرية للدول العظمى .

وكانت هناك إلتزامات اجتماعية مثيرة تضمنتها الحرب ، فقد أصبحت الحرب أحد الوظائف بل الحرف الرئيسية للجماهير ، فنجد أن كتائب الفرسان قد فتحت أبوابها على مصراعيها لكل من يستطيع امتطاء ظهر الحصان واستخدام السلاح النارى . ومع ذلك لم يسمح بناء الجيش بأى تحرك اجتماعى إلا بصعوبة بالغة .

ففى كل مكان فى أوروبا نجد أن الطبقات الفقيرة من النبلاء والأسر الأرستقراطية فرصة سانحة لحفظ ذاتها ، وذلك بالانخراط فى سلك الضباط وجعلوه حكراً مقصوراً على طبقتهم منشئين مبادىء وقواعد خاصة بالشرف والمبارزة والواجبات والمزايا .

ومن هنا ولد التسلط العسكرى أى سيطرة الطبقة العسكرية وتقديس الفضائل والمثل العسكرية .

وكانت المعانى الضمنية لكبر الجيوس والقوات البحرية فى الشئون الإدارية والسياسة أيضاً ذات مغزى فأصبح من الصعب وجود جيش كبير إلا إذا كانت لدى الدولة القدرة على جمع كمية كبيرة من المال وأدى هذا إلى تضاعف الوظائف المختصة بالأمور العسكرية .

وأصبحت بالتالى المجالس البيروقراطية أقوى وأطول فى البقاء . وقد كتب ج . ن . كلارك « لما كانت الدولة الحديثة محتاجة لجيش عامل ودائم ، فأدى هذا أن خلق الجيش الدولة الحديثة ، وهذا طبعاً لأن كلاهما محتاج للاخر » .

وقد أدت المطالب المالية الكبيرة الحاجة للتجنيد والمعدات أن زاد تدخل الحكومات فى شئون رعاياها ، ومثلا فالاحتياج إلى صنع البارود والمدافع على مختلف الأعيرة ، جعل من

الضرورى إقامة شركات إحتكارية لصناعة الأسلحة وتحت إشراف الدولة . وفى معظم الدول ، فقد أدى إزدياد قوة الحكومات إلى كبت الديموقراطية ، كما فى فرنسا على سبيل أو بشكل أبرز فى بروسيا ، حيث أصبحت القيادة العامة للجيش هى قلب لكل حكومة ،

وكانت ثورة أنجلترا الكبرى هى محاولة ناجحة لكبح الميل المتزايد للملوك المحتاجين للمال مما أدى إلى إنتهاك الحريات العامة .

وقد كانت معظم جيوش القرن١٧جيوش دول وليست جيوشاً وطنية . فيما عدا إنجلترا ، لم يكن القائد الأعلى للجيش (الملك) مسئولا أمام الشعب . وفى هذا العصر ، عصر الحكم المطلق أو الاستبداد[١] زاد مدى الاستراتيجية بالرغم من سوء المواصلات والاتصال . وعلى كل حال تطلب الأمر قدراً كبيراً من بعدالمدى وخفة الحركة مما أدىإلى تطور أسلوب التكتيكات الهجومية مما شجع القادة على المضى فى أثر العدو والبحث عنه وتدميره فى ميدان القتال . ولكن ارتبط هذا التطور بتطور أوسع مدى للسياسات الاقتصادية وأيضاً بطموح الحكام المطلقين فى السيطرة على جيوش كبيرة . ومثل هذه الجيوش كان من الصعب أن تعيش فقط على حساب البلاد التى تعمل فيها،وبالتالى فقد أصبح من الحيوى حراسة خطوط إمدادها وتجارتها الخارجية ، بينما كان مرغوبا فى حرمان العدو من خطوط إمداده وتجارته . وأصبح فى الحقيقة الحروب عبارة عن وسيلة للاثراء . والنظرية الاقتصادية التى تتضمن « بأن الدولة تصبح غنية إذا ضمنت لنفسها أكبر قدر من موارد العالم المادية حتى ولو تم ذلك بالوسائل الشريفة أو القذرة » ، فقد اعتنقها معظم السياسيين فى هذه الفترة .

وقد امتدت عمليات حرب الثلاثين عاما عبر جميع أنحاء وسط أوروبا . فقد خطط الأسبان للاستيلاء على جوتبرج ولذا فقد زحف الأمير بيكولوميني[٢] من الفلاندر إلى بوهيميا .

---

(١) النظرية السياسية لذلك ، أن السلطة الكاملة يجب أن تكون فى يد فرد واحد ليدير شئون الدولة كما يحلو له .

(٢) قائد نمساوى . « المعرب »

وكان جوستاف أودلف أستاذاً قديراً فى الجمع بين الاستراتيجية القصيرة المدى والتى تسعى وراء معركة فاصلة، والاستراتيجية طويلة المدى والتى تسعى لدفع العدو إلى الخلف ودحره على جميع الجبهات .

اول جيش وطنى

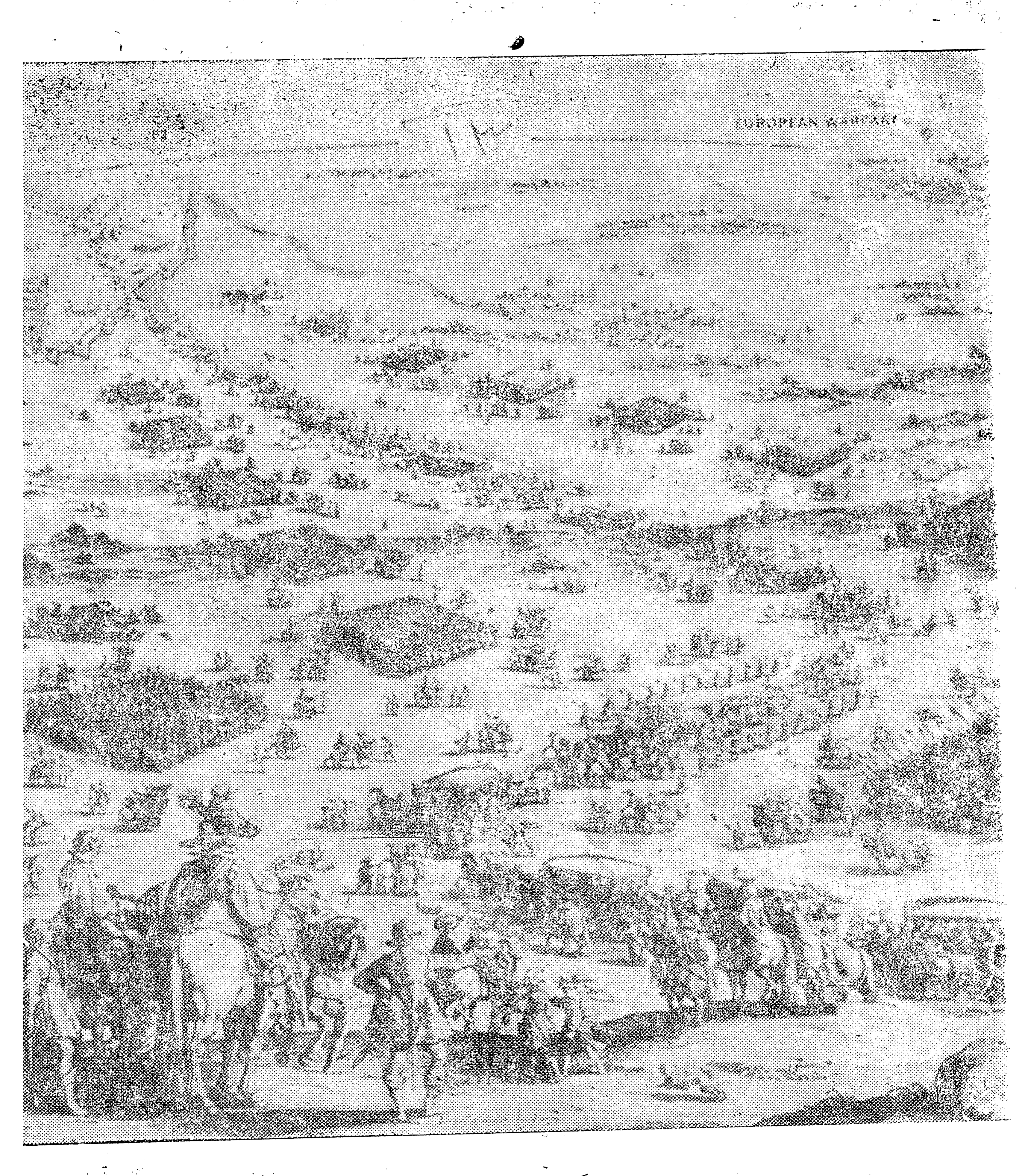
وفى عام ١٦١٨ بدأت حرب الثلاثين عاماً فى ألمانيا، وكان سببها فى الأصل إلى الاختلافات الدينية بين الكاثوليك والبروتستنت ، ولكن تشابكت السياسة مع الدين . وزاد تدخل فرنسا بالرغم من أنها لم تعلن الحرب علانية حتى عام ١٦٣٥ . ومع اتساع نطاق الحرب أصبح مظهرها السياسى يمثل مركز الصدارة ، وقد تطورت هذه الحرب بعد ذلك إلى صراع للسيطرة على أوروبا وذلك بين كل من الإمبراطور الرومانى المقدس « فرديناند الثانى » وتعاونه أسبانيا وبافاريا ، وبين فرنسا وتعاونها دول بروتستانتية مختلفة بالإضافة إلى تأييد البابا . وإذا ألقينا نظرة على تفاصيل هذه الحرب لوجدنا أننا أمام صورة بالغة التعقيد وذلك بسبب ما أصاب أوروبا من التفتت السياسى .

وكانت هذه الحرب تهدف إلى تحطيم وسط أوروبا سياسيا ولكن قام « ريشيليو[1] » فى عام ١٦٣٠ بضربه معلم عندما أغوى «جوستاف أودلف » ملك السويد بالدخول فى الحرب ضد الإمبراطور « فرديناند الثانى » . فقد كان « ريشيليو » يدرك تماماً أن « جوستاف » بلا شك أفضل القادة العسكريين فى أوروبا .

وفى ذلك العام (١٦٣٠) كان عمر «جوستاف » ٣٦ عاماً ، وقد توج ملكا وعمره ١٧ عاما ، ومنذ توليه العرش خاض حروبا كثيرة مع الدنمرك وبولندا وروسيا وذلك لمنع أيا منها من السيطرة على البلطيق . وقد اتبع دراسته النظرية لفن الحرب بالخبرة العلمية لهذا الفن فى ميدان المعركة. وتضمنت دراساته كتابات « اكسانوفون » والتى قال عنها ليدل هارت « ربما كانت من أعظم ما كتب عن الحرب » .

وقد ظل « جوستاف » على اتصال دائم مع كل تطور علمى وتكنولوجى يظهر فى ذلك الوقت . وفى الحقيقة كان « جوستاف » أول قائد عالج فن الحرب بحيث تتمشى مع عصر

(١) رئيس وزراء فرنسا .



الجيش الوطنى فى حرب الثلاثين عاماً ، ويظهر كبر حجم الجيوش فى ذلك الوقت

النهضة ، كما أن آراؤه عن التنظيم والتدريب والتكتيك كانت كلها آراء أصيلة وعلى قدر كبير من الذكاء . وأكثر من ذلك فقد كان قمة من النشاط والمهارة فى استخدام وتطبيق هذه الآراء ، علاوة على أنه شجاعاً وعاطفيا وملتهب حماس ، ويتمتع بكل حب واحترام من كل شعبه .

وقد كان إنساناً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ويحركه إيماناً راسخاً ولكن دون أى تعصب . وقد قيل عنه : — « كان يسبح للرب أولا ثم بعد ذاك ينهض بكل الأعباء من أجل رجاله وكانت عيناه تتركز على الفور على احتياجات جنوده الحالية وخطط أعدائه القادمة » .

وكان من أسباب نجاح « جوستاف » هو فهمه العميق للتنظيم والإدارة ، ولما لم تكن السويد فى إمكانها توفير جيشاً كبيراً من المرتزقة يكفى لمواجهة جيوش أعدائها الكثيرة ، لذلك أوجد « جوستاف » نظاماً جديداً للتجنيد ، والذى أصبح فى النهاية أول جيش وطنى تتولى الدولة الإنفاق عليه من تجهيز وإطعامه وصرف الرواتب . وقد استخدم القسس والحلفين المحليين كمندوبين للتجنيد ، وبذلك استطاع تجنيد أكثر من ٤٠٫٠٠٠ سويدى . وكانوا لهم أجسام قوية ويتميزون بشجاعة نادرة ، وكانت أعمارهم تتراوح بين ١٨ — ٣٠ سنة .

أما عمال الصناعات الخاصة مثل صناعة الذخيرة والنقل فقد أعفوا من الخدمة العسكرية . وفضلا عن أن الجيش بهذه الطريقة كان أكثر اقتصاداً ، فقد ظل أساسه جيشاً وطنياً . وكنتيجة لذلك كانت الروح المعنوية للجيش مرتفعة عن الروح المعنوية لجيوش الأعداء والتى كانت تتكون أساساً من الجنود المرتزقة .

وكان الجيش السويدى يختلف فى تكوينه وتجهيزه عن باقى جيوش أوروبا ، لأنه كان يسير وفقاً للأفكار والمفاهيم التكتيكية للملك السويدى والتى كان أهمها قوة النيران وخفة الحركة . وجعل من المسكيت[1] السلاح الرئيسى ، كما زاد عدد حملة المسكيت إلى حملة الرماح . وفى نفس الوقت سار « جوستاف » على غرار « موريس ناسو » وأنشأ وحدات صغيرة

(١) البندقية القديمة . « المعرب »

ووحدات فرعية . وبالتالى فكانت السرية تتكون من ٧٢ حامل المسكيت و ٥٤ حامل الرماح .وكانت الكتيبة تتكون من ٤ سرايا ، والآلاى يتكون من ٨ كتائب ، واللواء يتكون من ٢ إلى ٤ آلاى .

أما نفس المسكيت فقد أصبحت أقصر وأخف بحيث لم تعد هناك حاجة إلى وجود المسند ، كما اصبحت عملية تعميرها أكثر بساطة ، وأصبحت هناك مواصفات قياسية للاجزاء الميكانيكية وذخيرة المسكيت . وقصر الرمح من ١٦ إلى ١١ قدماً كما قل حجم الدرع .

أما الخيالة فتكونت من الفرسان المدرعين «الكوراسيير[١]» و« الدراجون[٢]» .

وكان « جوستاف » أول قائد عظيم يدرك أهمية مدفعية الميدان جاعلا منها سلاحا رئيسياً ثالثاً ، وعاونه فى ذلك قائد عبقرى فى المدفعية وهو «تورستنسن» ، والذى كان عمره فى عام ١٦٣٠ حوالى ثلاثين عاما .

وكانت مدافع الميدان تصنع فى ذلك الوقت بشكل أقصر وتوضع فى عربات أخف وزنا لزيادة خفة الحركة بحيث أصبحت مميزة عن مدافع الحصار ، وقد أنقص عدد الأعيرة كما وحدت المدافع ونظمت سويا ، وعلى ذلك فقد تراوح وزن مدفع الحصار السويدى ما بين ١٥ إلى ٦٧ هندردويت[٣] ، بينما كان وزن مدفع الميـــدان مابين ١٢ ، ١٨ أو ٢٧ هندردويت .

أما القطع الأصغر فكانت على شكل مدفع ميدان حوالى أربعة أرطال ، وتعمل بذخيرة متصلة وقد سمى هذا النوع بمدفعية الآلايات .

وكان من الممكن تحريكه بحصان واحد أو بثلاث رجال ، وأمكن استخدام طلقات المسكيت كذخيرة لها وهى أما ٨ طلقات فى قنبلة عنقودية أو علبة صغيرة بها ٦ طلقات . وبالإضافة إلى كل ما سبق كان يوجد فى جيش «جوستاف» سلاح للمهندسين وكانت أفراده

---

(١) الكوراسيير فرسان مسلحة بالسيف والمسدس .

(٢) الدراجون فرسان مسلحة بالمسكيت .

(٣) الهندردويت وحدة وزن تساوى ١١٢ باوند فى إنجلترا، والباوند يساوى حوالى ٤٥٣ جرام . « المعرب »

من الخبراء المدنيين الذين يطلبون عند الحاجة ، وكان يوجد بالجيش معدات قياسية ومساعدات جديدة مثل الخرائط ونظارات الميدان ، وعلى ذلك فقد كان العلم والتكنولوجيا فى جيش جوستاف يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالحرب . واستخدم التدريب الأولى كوسيلة لبناء الضبط والربط وزيادة كفاءة الرتب الصغيرة وبث روح الاستبسال فى الجيش .ولاشك أن الضباط فى مثل هذا الجيش الكبير المشكل من وحدات صغرى كانوا أكثر عدداً وأهمية من الماضى ، ولذلك انبثقت فكرة الرتب والتسلسل القيادى . كما قال ميخائيل روبرت : ــ « لم يعد الجيش ينظر إليه كجوعة متوحشة أو مجموعة من الأفراد العدوانيين ، بل كتنظيم معقد يتعين على كل جزء فيه أن يستجيب بذكاء إلى النبضات القادمة من أعلى » . فأصبح لابد أن يكون للضباط الكبار معرفة تامة بالعلوم والجغرافيا بل وحتى الديبلوماسيه ، ولهذا أنشأت عدة أكاديميات حربية فى أوروبا خلال القرن ١٧ .

وكان جوستاف لايستطيع أن يتحمل ضعف الكفاءة ، ولذا كان على استعداد ليرقى الضباط نتيجة لجدارتهم . فى نفس الوقت ألقيت مسئولية كبيرة على ضباط الصف ، لم تحدث منذ أيام الرومان . وتطلبت الأساليب التكتيكية مناورات مرنة وضبط وربط جيد للنيران والذى كان التدريب ضرورياً لتحقيقه .

وقد تعين على الضباط أن يتولوا تدريب جنودهم نظرياً وعملياً على طول مدار السنة . ومن الخطوات الهامة التى حققت الانتظام والتماثل هو إدخال الزى الرسمى الموحد وعلامات الأسلحة ، مما أدى إلى ازدياد الروح المعنوية وحب الوحدة .

وساعد الزى العسكرى الذى أدخله جوستاف كثيراً فى تأكيد وجود ضبط وربط جيد مع روح معنوية عالية . وعلى كل حال ليس هذا بالشىء الغريب على الجيش السويدى والذى أختير رجاله من أفضل شباب الأمة ويقودهم ضباط أصاغر لامعين تحت قيادة قائد أعلى ملهم . ولكن لم يترك كل ذلك للفرصة أو المصادفة أو السير كيفما أتفق ، ففى « مقالات عن الحرب » والتى كتبها جوستاف بنفسه ، فقد منع شرب الخمر والدعارة وأمتهان المقدسات . أما المخالفات البسيطة فكان عقوبتها إنسانية ، فقد حرم عقوبة الجلد ، بينما كان عقاب النهب



اللوحة رقم ٢٤

المانيا اثناء حرب الثلاثين عام

والاغتصاب واحتقار الطقوس والتعاليم الدينية المقدسة ، الموت ، بينما كانت طقوس الـكنيسة تعقد بانتظام والتى كان المقصود منها خلق تأثير حضارى مهذب .

الخط يفضل الرجل الجرى (أنظر اللوحة رقم ٢٤ ، ٢٥)

وقد أصبح من الضرورى بسبب إزدياد حجم الجيوش وإتساع مدى الإستراتيجية أن ينظم المسئولين عن الأمـــداد أعمالهم فى صـورة شبيهة أكثر بطريقـة رجال الأعمال .

وأصبح من الضرورى على الدولة توحيد السلاح المستخدم وتزويد الجنودبة بدلا مما كان يحدث فى الماضى بأن يترك ذلك للجنود أنفسهم . وكما ذكرت ، فقد كان من المستحيل عملياً على جيش فى القرن ١٧ أن يعيش على حساب قوت الدولة ، ولأسباب إنسانية فقد كان ذلك من الأشياء الغير مستحبة . وتضمنت إصلاحات جوستاف نظاماً بارعاً لمصادرة المؤن وجمعها فى مخازن إمداد وفى أماكن ملائمة . وكمبدأ أيضاً فقد تمركز جيشه فى معسكرات محصنة على غرار الرومان ، وأدت هذه الإصلاحات إلى خفض درجة الفقدان والخسارة كما قللت من الفظاعة والوحشية .

كما ساعدت الجيش فى الإستقرار ، لأنه لم يعد محتاجا للانتشار على طول البلاد للبحث عن المراعى والمأوى .

كما زادت خفة الحركة نتيجة لإنقاص عدد كبير من تباع المعسكر . وعملياً لم يعمل بهذا النظام دائماً فـكثيراً ما أضطر السويديون إلى النهب وأيواء جنودهم فى مساكن المواطنين بالإكراه . ولـكن كان هذا النظام خطوة عظيمة للأمام فى مبدأ الإمداد الحربى والإدارة العسكرية ، كما أدخل جوستاف أيضاً أفـكاراً جديدة وحيوية فى مجال الخدمات الطبية بتوفير طبيب جراح لـكل آلاى ، كما خصص عشر غنائم من الحرب للانفـاق على المستشفيات العسكرية .

أما فى مجال السياسة الخارجية ، فقد كان أمام جوستاف هدفين توأمين هما تدعيم النفوذ السويدى والدفاع عن البروتستنتية .

وفى عام ١٦٣٠ إضطر لدخول حرب الثلاثين عاماً ، نتيجة لقيام الجيشان الإمبراطوريان

الكاثوليكيان واللذان يقود كل منهما والنشتين وتيلي بإحتلال كل ألمانيا حتى البلطيق بالإضافة إلى الإجراءات الوحشية التي إتخذت ضد البروتستنتيين . وقرر جوستاف أن أفضل طريقة للدفاع عن البلطيق هي قيامه بالهجوم وذلك بغرض نقل الحرب بعيداً عن السويد ، وخاصة أنه سيكون من الصعب الدفاع عن سواحلها الطويلة ، بالإضافة أن الملك لايرغب فى أن يرى شعبه يقاسي ويلات الحرب . كما أنه فى بلد كألمانيا والتى مساحتها واسعة فإن التفوق العددى للعدو لن يكون له أثر كبير . وقد قدر جوستاف الموقف .



والنشتين

« كان لدى العدو بلداً واسعة يريد إحتلالها ، ومدنا عديدة ليحرسها .

وهذا يتطلب منه عدداً كبيراً من القوات . كما أنه ليس من الحكمة الإندفاع وراء الحقيقة القائلة بأن قوة العدو هى أكبر فى شهرتها عنها فى حقيقتها . وأن مجرد خسارة معركة كبيرة واحدة مع العدو ستضعه فى مركز حرجاً جداً » .

وكان على جوستاف أن يثبت صدق إدراكه وبصيرته ، ولكنها كانت حسابات غاية فى الجرأة والشجاعة ، وذلك بنزوله عند مصب نهر الأودر فى صيف ١٦٣٠ ومعه ١٣ر٠٠٠ جندى فقط ، بينما بلغت قوات العدو المشتركة فى مواجهته ١٠٠ر٠٠٠ جندى. وفى ذلك الوقت كان الإمبراطور مفرط فى ثقته بنفسه وفى جيشه ، ومن الأرجح أن ريشيليو خدعه ودفعه لطرد والنشتين والذى كان الإمبراطور يخشى قوته المتزايدة . وبذلك أزيل نصف أعداء جوستاف من المسرح بدون أن يطلق طلقة واحدة .

بل أن جيش جوستاف إستطاع تجنيد عدد من جنود والنشتين والذين أصبحوا بدون عمل بعد عزل قائدهم ، وعادة مايفضل الحظ الرجل الجرىء .

أما الأمراء البروتستنتيين فى ألمانيا فقد ظلوا متشائمين وخائفين من أن يقدموا العون لجوستاف .

وكانت إستراتيجية جوستاف هى التقدم بحذر وفى تشكيل منتظم ، أى جعل

إستراتيجيته تتلائم مع موارده . وأمضى العام الأول فى القيام بعمليات على الساحل الجنوبى للبلطيق مؤمناً قاعدته وخطوط مواصلاته ، وجالبا بالتدريج المزيد من الرجال إلى ألمانيا . وفى مايو ١٦٣١ كان مستعداً للمعركة ، فتحرك جنوباً بهدف حصار « مجد بورج » التى يحصارها « تيلى » . وتقدم الجيش السويدى الجيد التنظيم وتحت إدارة حازمة وتوفر الإمدادات ، ولكن فى اللحظة الأخيرة قلب الأمير السكسونى البروتستنتى « جون جورج » هذه الإستراتيجية رأساً على عقب ، وذلك برفضه السماح لجوستاف بالمرور من داخل ساكسونيا . وسقطت مجد بورج فى أيدى القوات الإمبراطورية التى قامت فى الحال بتدمير المدينة بعد الإستيلاء عليها وهذا أفسد نجاح تيلى مما أدى أن حصل جوستاف على تأييد الساكسونيين . ومرة أخرى وفى يوليه إنطلق الجيش السويدى سالكا طريقاً آخر نحو « ليبزج » ، وما أن حل شهر سبتمبر حتى تقابلت قوات جوستاف مع جيش تيلى عند « بريتنفيلد » والتى تقع شمال ليبزج بخمسة أميال . وكان تيلى يأمل فى تفادى خوض المعركة. ولكنه كان تقريباً قد دفع إليها بسبب تهور نائبه فى القيادة « بابنهايم » ، الذى إنطلق للاستطلاع فى الأمام وعاد ليبلغه بأن العدو يتقدم بسرعة كبيرة نحوهم وأنه لامناص من المعركة ، ولم يكن هذا صحيحاً .

هجوم الصدمة الحاسم

وكانت هذه الصورة عكسية تماماً لإستطلاع ملك السويد الماهر الكفء ، فكان جوستاف فى الظروف الهامة يقوم بالإستطلاع بنفسه ، وكان لديه نظام يقوم بمقتضاه القادة المرؤوسين بإمرار المعلومات إليه وإلى زملائهم فى سرعة ووضوح . كما كانت الأوامر بالجيش السويدى هى الأخرى مثالا يحتذى به ، فكل فقرة مرقمة تغطى نقطة واحدة وباختصار ووضوح وبتسلسل منطقى .

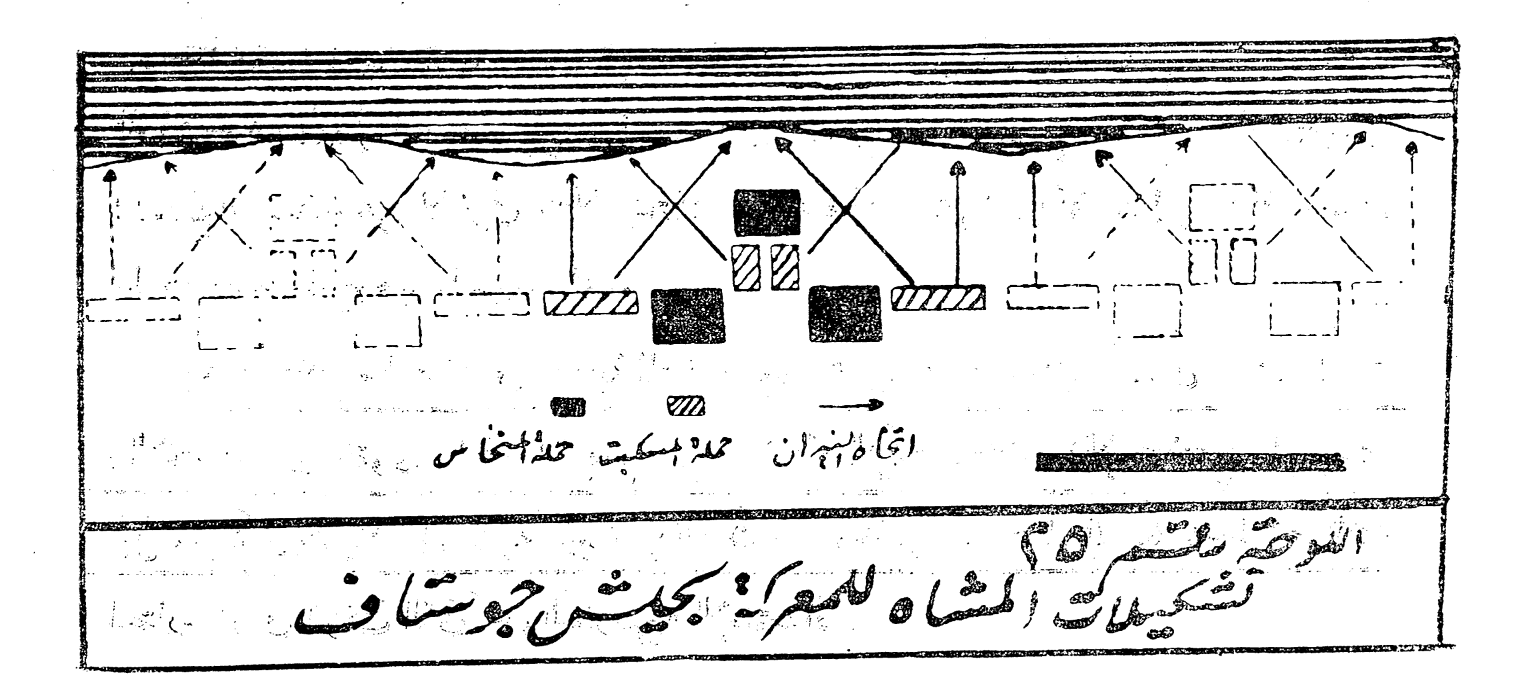
وهذا النظام ساعد تأمين الحماية المتبادلة وفى نفس الوقت حقق مبدأى حشد القوى والإقتصاد فى القوى أثناء الهجوم . وكانت الإستعدادات والإستطلاع السويدى قبل معركة بريتنفيلد على درجة كبيرة من الكفاءة . وخاض جوستاف المعركة فى الوقت الذى اختاره أو فى الوقت الذى كان العدو سيىء الإستعداد .

وكان لدى جوستاف ٤٧٫٠٠٠ جندى ، منهم ١٠٫٠٠٠ سكسونى ليست لهم خبرة كافية بالحرب ، ولكن الباقون كانوا جنوداً سويدية وقد وضع جوستاف ثقته فيهم .

وقد غرس فيهم خلال خدمتهم الطويلة معا كل آرائه التكتيكية سواء أثناء التدريب أو فى المعركة الفعلية .

وقد بدأ جوستاف من حيث توقف موريس ناسو وفى مجالات كثيرة فى الحرب . فقد أتبع نظام ناسو الخاص بتشكيل الوحدات الصغيرة، ولذا ألغى جميع أسلحة المشاة عدا المسكيت والمنخاس . ولكن كان موريس قائداً من طراز القرن ١٦ وكان هذا أقصى ماوصل إليه . وقد استمرت مشكلة إيجاد تكتيكات هجومية تلائم عصر الأسلحة النارية ، وحل هذه المشكلة يعتبر من أهم وأعظم ما شارك به جوستاف فى تصوير الفن الحربى الحديث . وقد وفرت الأسلحة النارية فى هذا الحل القوة الضاربة الرئيسية للمشاة ، وبالتالى زاد عدد حاملى المسكيت .

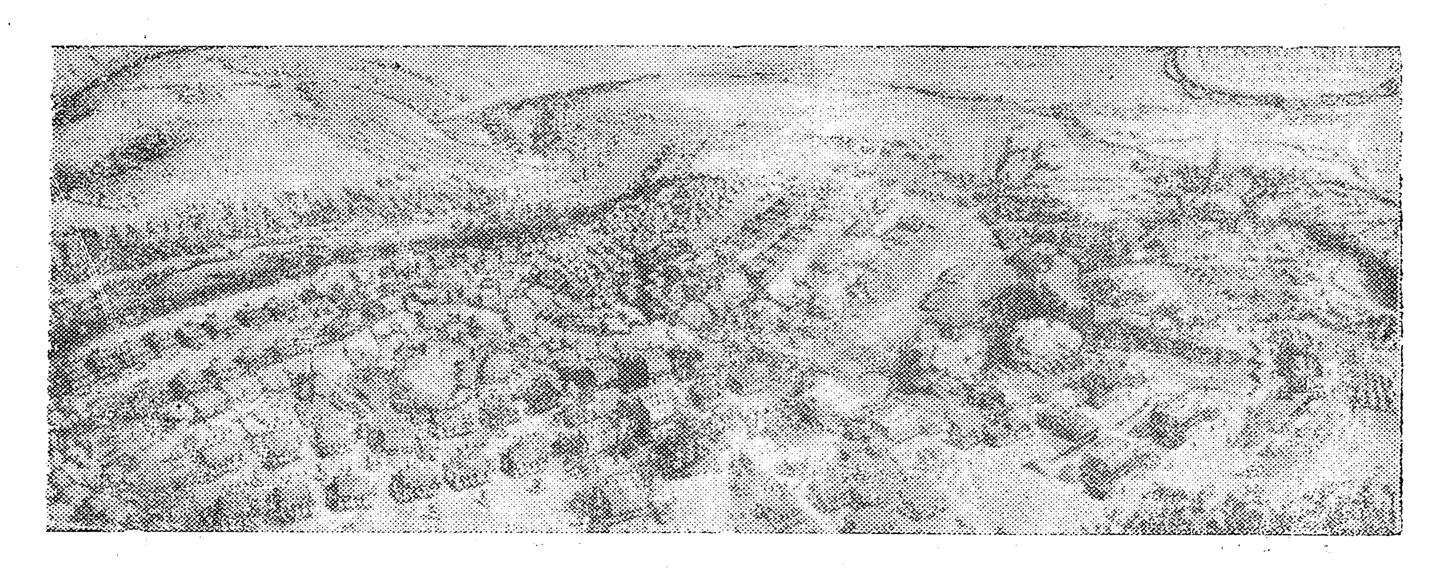
ومرة أخرى أصبح الرمح سلاحاً هجومياً ، ولكن ظل الواجب الرئيسى للرماحين هو تغطية جنود المسيرة وحمايتهم من أى هجوم أثناء تعمير بنادقهم . وقد تم إختراع تشكيل مرن وكفء للواء المشاة وهو على شكل (٢) ويظهر ذلك فى اللوحة رقم ٢٥ ، وجمع هذا التشكيل بين حاملى المسكيت وحاملى المنخاس للقيام بواجباتهم المختلفة وفى صورة أكثر



اللوحة رقم ٢٥
تشكيلات المشاة للمعركة بجيش جوستاف

إقتصاداً . وكانت وحدات حملة المنخاس المتقدمة فى الوسط تمثل جداراً أو حاجزاً للوقاية فى الدفاع ، وفى نفس الوقت تصبح رأس حربه فى الهجوم ، فى نفس الوقت حمت وحدات حملة المنخاس الأخرى أجناب حملة المسكيت ، بذا كان يمكن لحملة المسكيت وهم محميون تماماً أن ينقضوا على جبهة العدو بوابل من قذائفهم من أى نقطة مواجهة للعدو ، ويمكنهم أيضاً حشد النيران وضرب العدو من زوايا مختلفة .

وكما لوحظ أن اللواء المشاة بهذا التشكيل أصبح يمثل « قلعة صغيرة متحركة بأسوارها وإستحكاماتها الأمامية » وإلى جانب نيران حملة المسكيت فكان فى إستطاعة جوستاف أن يحدث صدمة أخرى بالنيران ، بما لديه من مدفعية الميدان والتى تميزت بخفة حركتها وبمعدلها العالى من النيران ، زد على ذلك أن دخان المدافع يمكنه إلى حد ما من إخفاء تحركات القوات التى فى الخلف .



تشكيلات المعركة لقوات جوستاف

وقد أعاد جوستاف تنظيم الفرسان ، فقد ألغى نظام النصف دورة (الكرا كول) والذى كان يقوم به الفرسان المسلحين بالمسدسات واستخدم بدلا منه الهجوم بأقصى سرعة مع إستخدام السيف كسلاح رئيسى ،وإستخدم المسدس كسلاح مكمل للسيف خلال الإشتباك . وقد كان ذلك العودة إلى الإستخدام الصحيح والذى يحقق أكبر فائدة من سرعة وقوة صدمة الفرسان .

وقد حققت الفرسان واجباً تكتيكياً مزدوجاً ، فكان عليها القيام بأعمال التطهير الأولى فى المواجهة لإفساح الطريق لإقتحام المشاة ثم القيام بعد ذلك بما يطلق عليه بهجوم الصدمة الحاسم .

وقد كان جوستاف على يقين تام بأن التشكيل الكثيف المحتشد ما هو إلا مضيعة للقوة البشرية ويشل القدرة على المناورة كما أنه معرض بصفة خاصة لنيران المدفعية ، وعلى ذلك إستخدم جوستاف التشكيل الخطى للقتال أى على شكل خطوط ، مكرراً فيها الألوية والتى فتحت على شكل حرف (T) مع مجموعات صغيرة من الفرسان .

وفى نفس الوقت دعم هذا الخط بالإحتياطيات . وكان عمق حملة المنخاس ٦ صفوف والفرسان ٤ صفوف مع وجود فواصل بين الصفوف . أما حملة المسكيت فكان عمقهم ٣ صفوف ، وبهذا الشكل كان يمكن ضبط وتنظيم قوة النيران والحركة والصدمة وتوجيهها بحرية وبطريقة أكثر إقتصاداً .

المناورة الضخمة (أنظر اللوحة رقم ٢٦)

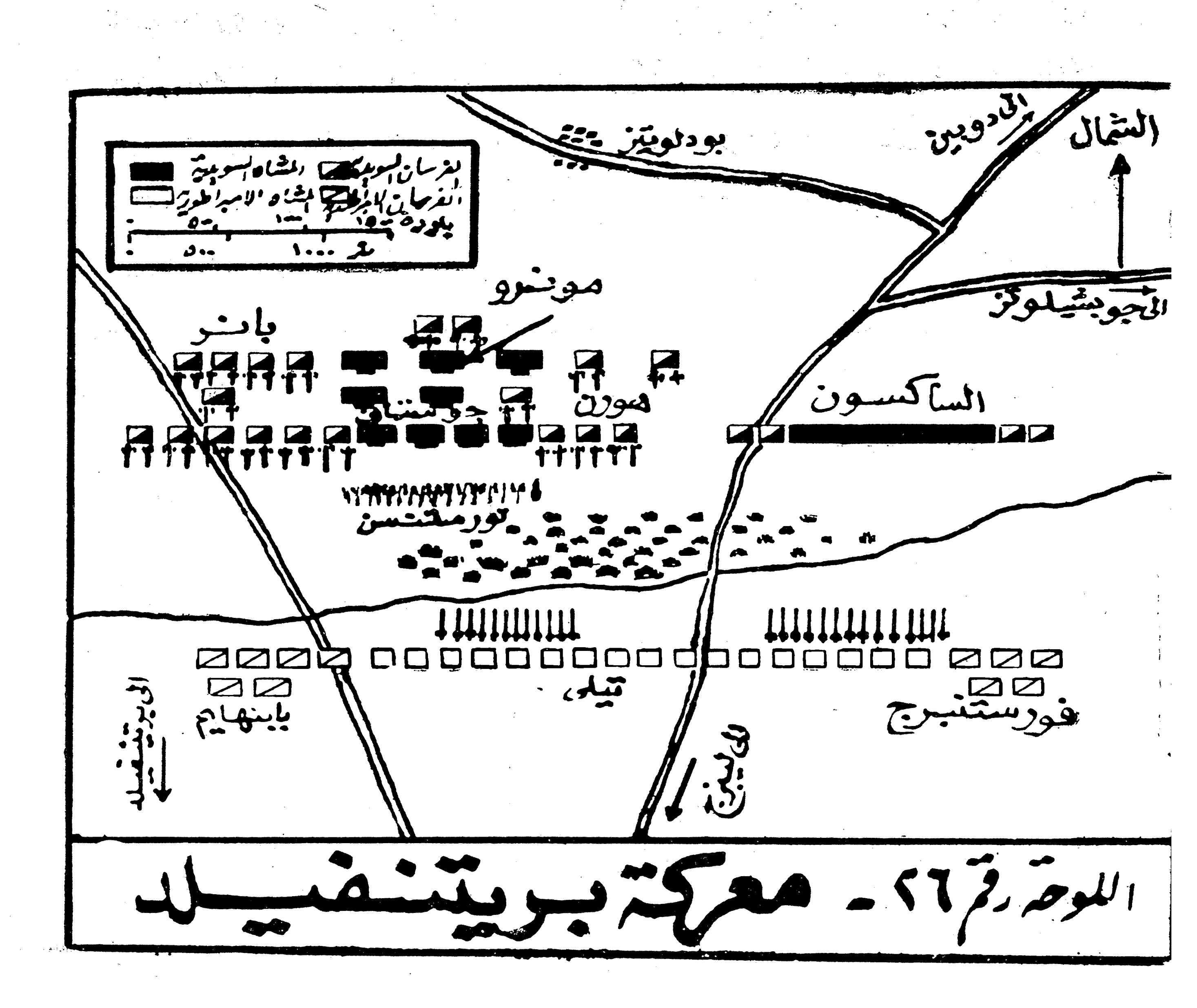
كانت أرض المعركة فى بريتنفيلد عبارة عن سهل قليل التموج وعارى من الأشجار . وقد وضع جوستاف الجنود السكسون[1] فى أقصى اليسار ، ثم يليهم اليسار السويدى تحت قيادة هورن ، والذى يتشكل من ٣ آلايات من الخيالة تنتشر بينهم جماعات من حملة المسكيت ويدعمهم آلايين من الخيالة فى الخط الثانى .

أما قوات المنتصف فكان يقودها جوستاف وكانت مشكلة من الخط الأمامى وبه ٤ ألوية من المشاة فى تشكيل حرف (T) ، والخط الثانى وبه ٢ لواء مشاة وآلاى فرسان ، وفى الخط الثالث وبه ٣ ألوية مشاة وخلفهم ٢ آلاى فرسان . أما قوات اليمين فيقودها « بانر » ويتكون خطه الأمامى من ٦ آلايات من الفرسان وتنتشر بينهم جماعات من حملة المسكيت ، وفى الخط الثانى آلاى من الفرسان ، وفى الخط الثالث ٤ آلايات من الفرسان وكان أمام كل آلاى مدفعيته[2] .

---

(١) كان لايعرف تشكيلهم على وجه التحديد .

(٢) كانت تتكون من مدفعين ٤ رطل .



اللوحة رقم ٢٦ - معركة بريتنفيلد

أما مدفعية الميدان الثقيلة فكانت تحت قيادة « تورستنسن » وحشدت أمام منتصف القوات .

وكان فى مواجهة ذلك ،جيش الحلفاء ويتكون من ٤٧٫٠٠٠ جندى ، فكان جيش تيلى الإمبراطورى يتكون من ٤٠٫٠٠٠ رجل[١] . وكان تيلى البالغ من العمر ٧٠ عاما قائداً جيداً فى مجال الأساليب التقليدية الأسبانية ، وكانت شخصيته مثيرة ومهيبة بوجنتيه الغائرتين ورداءه الضيق ذو اللون الأخضر القاتم . وقد شكل تيلى جيشه فى خط واحد أو خطين من ١٧ آلاى من المشاة . وشكل كل آلاى منها مربعاً عمقه ٥٠ رجلا . أما الفرسان فقد وضعها تيلى على الأجناب وهكذا فتح الجيشان فى تشكيل القتال يواجه كل منهما الآخر وعلى مواجهة طولها أكثر من ٢ ميل . وارتدى السويديون زيهم الأخضر بينما ارتدى الإمبراطوريون رمزهم والذى كان وشاحاً أبيض . وبالرغم من وجود اختلاف بسيط فى العدد بين الجيشين إلا أن السويديين تفوقوا بشكل واضح فى المدفعية[٢] . وكان كلا القائدين ذو خبرة وتجربة وواثقاً من نفسه . وعلى كل حال فقد توقفت نتيجة المعركة على أى من الأسلوبين التكتيكيين سيثبت تفوقه على الآخر ، فأحدهما يعتمد على الحشد والآخر يعتمد على خفة الحركة .

وقضى جوستاف الليلة السابقة للمعركة فى عربته يناقش المعركة القادمة مع كبار ضباطه. ومع بزوغ شمس ١٧ سبتمبر ١٦٣١ ، وبعد انتهاء شعائر الصلاة وانتهاء جوستاف من إعطاء تعليماته الأخيرة لضباطه ، بدأ الجيش السويدى يتقدم للهجوم . وكان لابد عليه من عبور مجرى مائى موحل أولا ، وهنا فشل « تيلى » فى استغلال هذه الفرصة ليهاجم السويديين أثناء عبورهم المجرى المائى . وتمت عملية العبور بدون حوادث بخلاف مصادمة صغيرة جرت بين بعض الفرسان الإمبراطورية وقوات استطلاع جوستاف . وكانت المرحلة الرئيسية الأولى للمعركة هى معركة تراشق بالمدفعية ، وقد بدأت هذه المعركة عند الظهر واستمرت لأكثر من ساعتين وتفوق السويديون على خصومهم نتيجة لإطلاق مدافعهم ٣ طلقات بينما يطلق العدو طلقة واحدة . وأخيراً ، انهارت قوة احتمال الفرسان الإمبراطورية الموجودة فى اليسار تحت

---

(١) ٣٠٫٠٠٠ رجل مشاة و ١٠٫٠٠٠ فارس

(٢) كان لدى السويديون ٥٤ مدفعا بينما كان لدى عدوهم ٢٦ مدفعا .

« المعرب »

وطأة نيران المدافع السويدية لدرجة أن بابنهايم قائد هذا الجانب لم يستطع البقاء أكثر من ذلك فى مكانه ، وبدون أى أوامر من « تيلى » تحرك ومعه ٥٠٠٠ مقاتل إلى مسافة أبعد قليلا إلى اليسار ، ثم قام بهجوم على الجناح السويدى الأيمن .

ووجد جوستاف فرصة قيمة لإظهار وتطبيق مادرب به قواته على المناورة وخفة الحركة ، وبسرعة دفع الفرسان الأحتياطية لتشكيل زاوية قائمة مع الخط الأمامى . وبعد سبع هجمات على هذا المعقل المكون من خليط من الفرسان وحملة المسكيت تبعثرت وتحطمت فرسان بابنهايم المدرعة .

وعندئذ قام « بانر » بهجوم مضاد دفع به الجناح الأيسر من فرسان الإمبراطور إلى خارج الميدان .

وفى نفس الوقت كان الموقف فى الجناح الأيمن على عكس ما عليه فى الجناح الأيسر لقوات « تيلى » ، فقد قامت الفرسان على الجناح الإمبراطورى الأيمن بقيادة «فورستنبرج» بهجوم ، وفى خلال نصف ساعة أجبرت الساكسون على الفرار . ونتيجة لذلك أصبح اليسار السويدى مكشوفا علاوة على نقص عددهم . وكان « تيلى » يسيطر على جيشه بجهد جهيد ، أما الآن فقد أدرك الفرصة المواتية التى ظهرت أمامه . وبعد أن لاحظ أن يمينه قد تخطى ليسار العدو الذى ضعف بهرب الساكسون ، فقد أمره بالألتفاف حول السويديين ومهاجمة مؤخرتهم ، بينما تحركت مشاته الموجودة فى المنتصف لمهاجمة الجنب الأيسر السويدى. ولكن مع بداية هذه المناورة الضخمة ، أظهر جوستاف إمكانه القيام برد فعل ناجح فى معركة متقلبة ومتطورة على الأقل بنفس ما يقوم به « تيلى » ، كما كان تشكيله المترابط والمنظم يفوق بدون شك حشود عدوه .

وعلى الفور أصدر جوستاف أوامره إلى « هودن » بأن يلتف يساراً لمواجهة الجبهة الجديدة التى أقامها « تيلى » ، وفى نفس الوقت جاب جوستاف لوائين من المشاة من المنتصف لتدعيم اليسار .

ولما كانت وحدات جوستاف الأصغر لديها قدرة على المناورة وخفة الحركة أكبر بكثير من المربعات الإمبراطورية ، لذلك فقد خسر تيلى ما ظنه فى لحظة مكسباً أكيداً .

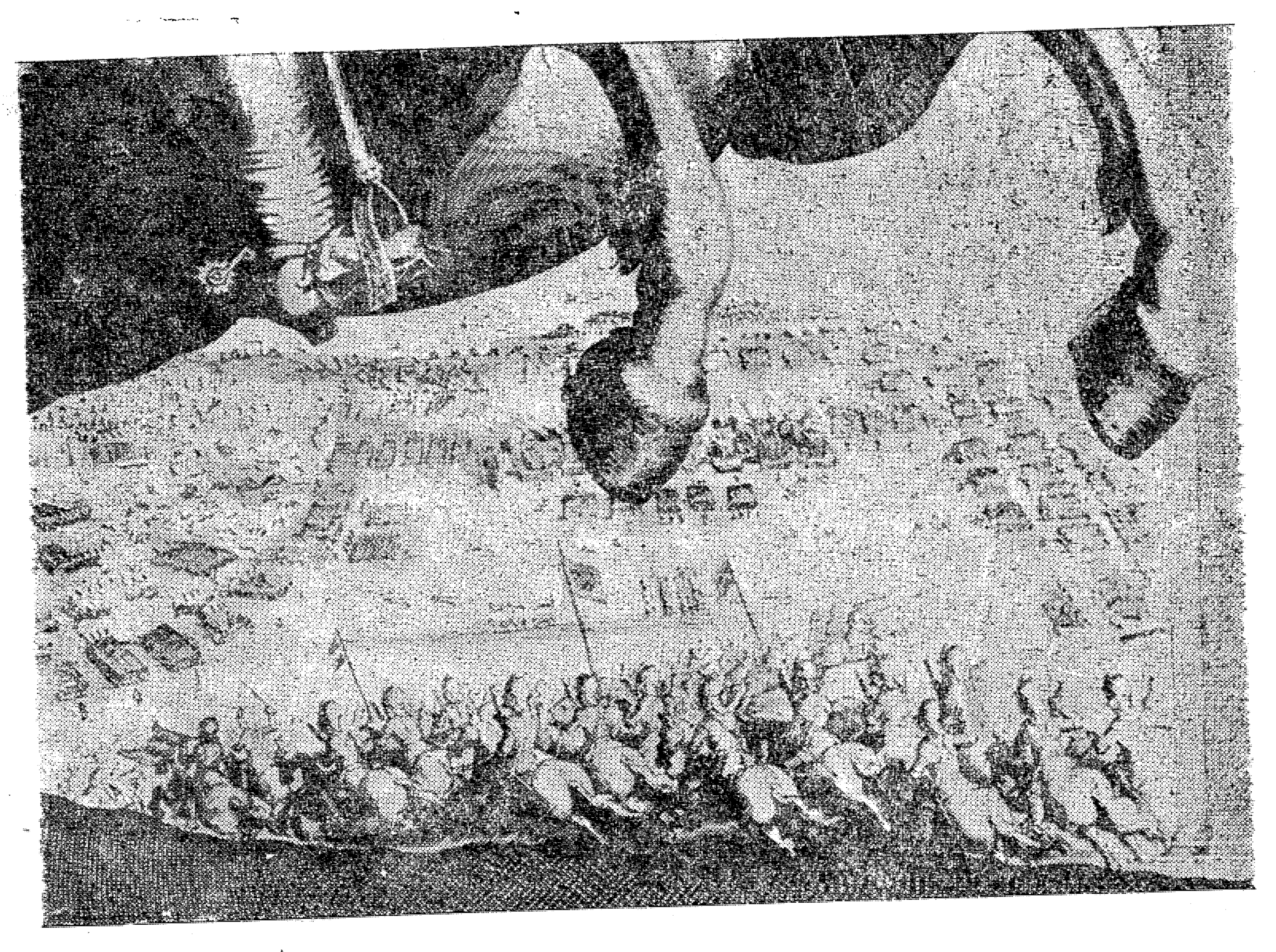
وقد وصف مونرو[1] كيف دار القتال : — « وقفت مجموعات العدو بثبات تنظر إلينا من مسافة قريبة ، وشاهدت لوائنا الآخر وهو يلتف ويتخذ مواجهته ضدهم ، واستعدوا فى تصميم لأستقبالنا بقصفه من المدفعية والمسكيت . ولـكن بتقدير ألهى أطلقت عليهم النيران مرتين قبل أن يعكروا صفوفنا . وأمطرهم جنودنا بوابل من نيران المسكيت والتى قوبلت بالرد بالمثل ، ولـكن ذلك لم يستطع أن يوقف تقدم لواؤنا داخل صفوفهم والتى كانت تتساقط تحت طعنات حملة المنخاس » .

قتل جوستاف (أنظر اللوحة رقم ٢٤ ، ٢٦)

وكانت هذه أصعب وأقصى مرحلة فى القتال ، وتأرجحت نتيجة المعركة حسب سيرها ، وقرر جوستاف المخاطرة بـكل شىء وتوجيه ضربة حاسمة . فقد أصبح جناحه الأيمن آمنا الآن بعد هزيمة بابنهايم، فعلى الفور جلب جوستاف من هذا الجناح ٤ آلايات من الفرسان وقادهم بنفسه فى هجوم عظيم فى اتجاه أعلى المنحدر أى فى اتجاه مدفعية العدو. واكتسح جوستاف المدفعية الإمبراطورية ثم أنطلق من خلالها حول اليسار الإمبراطورى. وأستخدم « تورستنسن » المدفعية الإمبراطورية بعد أسرها ضد القوات الإمبراطورية وبالتالى صب عليهم نيرانا مركزة من اليمين ومن المدافع السويدية التى فى المنتصف . وبينما كان يجرى هذا أستمر هجوم اليسار السويدى ضد منتصف « تيلى » . وقد أستمر الحشد الملتصق من المشاة الإمبراطورية تقاتل فى شجاعة بالرغم من الهجوم عليها من المواجهة واليسار بالمدفعية والمشاة والفرسان السويدية ولـكن فى النهاية تحطم وهزم جيش « تيلى » . ولم يطاردهم السويديون طويلا ، وقد بلغت الخسائر النهائية لجيش « تيلى » ١٣٫٠٠٠ جندى علاوة على فقده كل مدفعيته وقوافل أمتعته.

ولقد كانت معركة بريتنفيلد ذات مغزى سياسى كما كانت لها مغزى عسكرى أيضاً ،فقد أنقذت هذه المعركة شمال وغرب ألمانيا من السيطرة الهبسورجية والـكاثوليـكية . ولم يتابع جوستاف نصره بالتقدم إلى فينا عاصمة الإمبراطورية البعيدة حيث كان عليه أن يمر من خلال بلاد تحف بالمخاطر . وقام جوستاف بدلا من ذلك بتعزيز موقفه بالقرب من وطنـــه وذلك بأحتلاله لمنطقة الراين وتمـكن بالتالى من قطع الأتصال الأسبانى مع الأراضى الواطئة وكبح

(١) القائد الاسكتلندى لأحد الألوية السويدية التى جلبت من المنتصف لتدعيم اليسار « المعرب »



فرسان جوستاف تقـــوم بالهجوم فى معركة بريتنفيلد

خطط ريشيليو . وما أن حل ربيع عام ١٦٣٢ حتي كان تيلى قد كون جيشاً جديداً وباغة جوستاف عند نهر ليش بجيش منظم تنظيما ذكياً ، وفى عبقرية حشد جوستاف قواته واستطاع أن يستر عملية العبور للنهر . وفى المعركة التى تلت دمر جيش تيلى وقتل تيلى نفسه . وبعد ذلك تقدم جوستاف إلى جنوب نهر الدانوب . وقد ذعر «فردیناند» وأستدعى « والنشتين» . وأستطاع والنشتين دفع السويديين إلى الخلف قرب مدينة ليبزج . وهناك حقق جوستاف بالجيش السويدى نصره العظيم الثانى ، وذلك فى معركة عند « لوتزن » والتى دارت بينه وبين جيش والنشتين فى نوفمبر ١٦٣٢ . ولـكن كان نصراً سلبياً نتيجة لقتل جوستاف فى هذه المعركة .

وقد قام جوستاف بأعمال كثيرة خلال مجرى حياته والتى بدأت فى نفس عمر الأسكندر ولم تدم إلا وقتاً قصيراً ، ولـكن أقل ما توصف بها هو أنها كانت مثيرة ومذهلة ومؤثرة .

فجوستاف هو مؤسس التنظيم العسكرى الحديث وبشكل خاص فيما يتعلق بنظام التجنيد والأمداد وكذا التدريب الحربي الحديث . كما أنشأ التسلسل القيادى الكامل للضباط وأيضاً تعليمات المعركة . وقد يكون هناك آخرون من أصحاب العبقريات الإستراتيجية أو الوسائل التكتيكية الماهرة إلا أن جوستاف قد دخل التاريخ كأعظم صانع للجيش فى عصره . فقد كان يشكل السلاح طبقاً لما يريده ثم يستخدمه فى المعركة بمنتهى الكفاءة كما رأينا .

وكان جيشه بتشكيله الخطى المكون من وحدات صغيرة مسلحة بأسلحة مختلطة ، يعتبر أول جيش فى عصر الأسلحة النارية يجمع بين التأمين والهجوم الناجح ، أى يجمع بين القوة للحماية مع القدرة على الحركة وأيضاً القوة فى الضرب .

وقد سار تطور الجيوش الأوروبية الحديثة وبطريقة مباشرة مع أسلوب وتنظيم الجيش السويدى الذى خلقه جوستاف .

اغتيال والنشتين

وبالرغم من هزيمة « والنشتين » فى معركة لوتزن إلا أنه أصبح الآن أقوى رجل فى شمال أوروبا ، ويعتبر والنشتين شخصية غاية فى الإثارة ، فقد أستطاع كسب عطف الإمبراطور والحصول على لقب « دوق » ، بالرغم من أصله المتواضع بفضل علاقات غرامية سرية قوية ، وطموحه الضخم وموهبته الطبيعية فى أنتهاز الفرص . وفى أوائل الحرب عندما كانت الأمور يشوبها السوء بالنسبة لفرديناند ، عرض والنشتين عليه أن ينشأ ويجهز له وبدون تكاليف جيشاً من ٥٠٠٠٠ جندى ليكون فى خدمة فرديناند وفى وقت قليل أستطاع والنشتين جمع الجيش الذى وعد به من المرتزقة نتيجة لسمعته العسكرية الطيبة التى حصل عليها فى جنوب شرق أوروبا وأيضاً لمعرفة الناس بأنه اقطاعى كريم . وفى عام ١٦٢٧ تمكن والنشتين واقعياً من نزع سلاح البروتستانت فى شمال ألمانيا واكتسح البلاد حتى البلطيق .

وعندئذ رأى أن هناك أحتمال دخول السويد الحرب ولم يسىء تقدير قوتها . وقد حاول بناء أسطول أمبراطورى فى البلطيق وهذا يدل على ما يتمتع به من بصيرة أستراتيجية ممتازة . وكان هذا هو التهديد الذى واجه جوستاف عند نزوله فى ألمانيا بأسطوله الصغير فى

صيف عام ١٦٣٠ . وبالتالى لم يكن طرد فرديناند لوالنشتين فى ذلك الوقت إلا « ضربة حظ » رائعة للسويديين .

وقد قبل والنشتين طرده بدون أى تبرم . وعاد إلى إدارة ممتلكاته وإدخال الحضارة إلى « مولدافيا » . وفى أثناء ذلك أرسل لفرديناند خطة ترمى إلى عقد تحالف مع الدانمرك لتوجيه ضربة من البحر إلى قاعدة جوستاف ، ولكن فرديناند رفض هذه الخطة . وظل والنشتين ينتظر الفرصة الملائمة . ومع حلول عام ١٦٣٢ كان فرديناند قد فقد كل ما كسبه والنشتين لصالح الأمبراطورية ، وعليه فقد أستدعاه فرديناند للخدمة . وللمرة الثانية أنشأ والنشتين جيشاً من ٤٠٠٠٠ رجل على نفقته الخاصة ، ولكنه أصر فى هذه المرة على أن تكون له القيادة العليا لجميع قوات الأمبراطورية أى حتى أعلى من الإمبراطور نفسه . وقد كانت حملة والنشتين فى « لوتزن » عملية أستراتيجية بارعة . ففى صيف ١٦٣٢ كان السويديون يحتلون « بافاريا » والساكسون يحتلون « بوهيميا » ولم يوجه والنشتين ضربة مباشرة إلى عدوه الرئيسى ولكنه ركز أولا على تسديد ضربة للساكسون . وتمكن من طردهم من بوهيميا كما أجبر أميرها على الإنضمام إلى الجانب الأمبراطورى . وبعد أن حرم والنشتين جوستاف من حليفه الرئيسى لم يهاجمه بل تحرك شمالا مهدداً خطوط المواصلات السويدية فأجبر جوستاف على مغادرة بافاريا وفى أعقابه مكسميليان[1] لتتبع والنشتين . وعند « نورمبرج » أتخذ الجيشان مواقع دفاعية قوية فى مواجهة بعضهما . حيث يسعى كل منهما إلى تجويع خصمه . حاول جوستاف الدخول فى معركة مع والنشتين الذى رفض الأشتباك وفى النهاية قام جوستاف بهجوم كثيف على مواقع العدو بالرغم من نقص الإمدادات القاتل. وصد هذا الهجوم وانسحب جوستاف تحت وطأة جوع قواته وقوة إرادة والنشتين .

وقد علق والنشتين على هذا الإنسحاب بقوله : « لقد تثلمت قرون الملك (جوستاف) وفقدت حدتها » . وتحرك جوستاف جنوبا إلى الدانوب ، ولكن تجددت المعركة بين الإرادتين ، ومرة أخرى كسبها والنشتين . وتحول والنشتين شمالا وتقدم إلى ساكسونيا وبدا أنه سيهدد خطوط مواصلات جوستاف على البلطيق . ونجحت الخطة وسحب

(١) حاكم بافاريا « المعرب »

والنشتين مرة أخرى جوستاف من الأراضى الأمبراطورية . ولكن جوستاف عوض فشله بإجبار والنشتين على الدخول معه فى معركه عند « لوتزن » فى وقت كان لا يتوقعه والنشتين .

ومع حلول عام ١٦٣٣ أعاد والنشتين بناء جيشه معوضاً خسائره فى « لوتزن » ، وبدا وكأنه سيحصل على نصر مؤكد للأمبراطوريين . وهزم والنشتين السويديين عند «ستينو» وأصبح على وشك عزلهم تماما عن البلطيق ، ولكن فرديناند أستدعاه فى غضب لحماية الجنوب . وفى عام ١٦٣٤ طرد فرديناند والنشتين مرة ثانيه خوفاً من أن تطغى شخصيته عليه بالإضافة إلى الغيرة لنجاحه والريبة فى شخصيته التى تشبه اللغز . ولم يمض بعدها وقتاً طويلا حتى أغتيل والنشتين . وليس من السهل تقييم والنشتين ، فقد كان ضعيفاً فى الناحية التكتيكية ، وبالرغم من أنه كان منظماً عسكرياً جيداً إلا أنه لم يكن بدرجة جوستاف . ولكنه كان إستراتيجياً قديراً للغاية ، وكان لديه هدفاً سياسياً واضحاً وهو الحصول على السلام الدائم .

وربما كان والنشتين أقل فائدة إذا درسناه كجندى عنه إذا ما درسناه كشخصية مغامرة وبدرجة ملفتة للنظر سواء فى الناحية العسكرية أو السياسية . ولا شك أن الأمر كان يتطلب شخصية قوية تستطيع التفوق على دهاء جوستاف وحنكته وفى نفس الوقت لتجذب فى سهولة آلاف من الرجال لتتبعه وتجعل الأمبراطور الرومانى المقدس يقبل تعاقداً مهيناً . وقد استطاع والنشتين عمل كل هذا ، كما قال ريشيليو : — « إن مجرد وجوده وصرامته بالإضافة إلى صمته جعل الرجال يطيعونه » . وقد ذهب إلى الحرب لجمع المال ونجح فى ذلك حتى أنه أصبح ملكا من ملوك المال وزعيما حزبياً قوياً ، وكان مثالى فى تطبيق فكرة التسامح الدينى علاوة على أنه سعى إلى توحيد ألمانيا .

وكان يعتقد أيضاً فى نجمه وحسن طالعه ، وربما كان هذا الخط المنحرف الخيالى هو الذى دمره فى النهاية .

نهاية حرب الثلاثين عاما

وربما إذا كان قد عاش والنشتين أو جوستاف كانا قد نهيا الحرب بسرعة وبطريقة أو بأخرى .

ولكن لم يكن ريشيليو أو مازرين[١] يستطيعا الوصول إلى هذه النهاية قبل أن تتمكن فرنسا من السيطرة على الضفة اليسرى لنهر الراين . وبعد موت والنشتين تأرجحت عجلة الحظ ، ولكن منذ ١٦٣٩ أستطاعت كل من فرنسا والسويد الحصول تدريجياً على الأفضلية على النمسا وأسبانيا . وبالرغم من أن فرنسا لم تشتبك فى حرب منذ أيام هنرى الرابع إلا أنها منذ عام ١٦٤٣ أصبح لها جيشاً عصرياً على يد « ليتيلير » وزير الحرب ، مسايراً الكفاءة التى تسير بها باقى خطوط الدولة .

إلا أن فى عام ١٦٤٣ بدد دوق « كوندى »[٢] ما تبقى من الهيبة الأسبانية العسكرية محققاً فى نفس الوقت مكسباً أستراتيجياً عظيما وذلك بانتصاره عند « روكروا » بالقرب من « سيدان » فى منطقة الآردن الغربية . وقد واصل الجنود الفرنسيين تحت قيادة « كوندية » فى تعلم التكتيكات الجديدة فى مجال كل من النيران والحركة . وتوفر لفرنسا قائداً ممتازاً آخر وهو « تورين » .

وقد أكملت قدرته كاستراتيجى بارع ، عبقرية كونديه التكتيكية . وظل الجيش السويدى أيضاً قوياً للغاية والذى يقوده « تورستنسن » والذى كسب نصراً هاما عند « جانكاو » فى عام ١٦٤٥ . وبعد مفاوضات طويلة ومعارك عديدة ، وضعت حرب الثلاثين عاما أوزارها بمعاهدة ويستفاليا عام ١٦٤٨ .

وعندما تحقق السلام فيمكن أن يقال أن فرنسا هى التى خرجت من الحرب بنصيب الأسد ، فقد أصبحت حدودها ثابتة وتمتد على طول البرانس وجزء من الراين ، كما أصبح جيشها من أقوى جيوش أوروبا. وبرزت أيضا كل من السويد وبراندبرج كقوتين كبيرتين. ومنذ ذلك الوقت وأصبح تاريخ ألمانيا السياسى والعسكرى هو تاريخ دويلاتها المتقدمة ،

---

(١) الذى خلف ريشيليو فى عام ١٦٤٢ .

(٢) كان يعرف بدوق دانجيان وكان عمره ٢١ عاما « المعرب »

وأصبح الأمبراطور الرومانى المقدس لايسيطر عمليا إلا على النمسا . كما حول الهيبسبورجيون انتباههم فى السنوات التالية وبدرجة متزايدة نحو الشرق معوضين أنفسهم عما أصابهم من أنهيار فى أوروبا الغربية وذلك على حساب الأمبراطورية العثمانية المتداعية .

وربما يكون أسوأ عاقبة لحرب الثلاثين عاما هو مصير أهل ألمانيا . فقد دارت على أرضها المعارك بين الجيوش الكبيرة المتعادية ، وكان النهب والتدمير لمدة ثلاثين عاما ضرورة إدارية ، فلم يكن لدى الجيوش القدرة الإدارية التى تستطيع بها مجاراة نوايا قادتها بالرغم من مجهودات جوستاف ووالنشتين . وحتى قبل أن تبدأ هذه الحرب تنبأ « هيوجوتيوز » بهذا الموقف مسبقاً . وقد كتب كتابا قدم فيه مجموعة من القواعد والمبادىء التى تصلح لتكون إتفاقاً دولياً ، وكان الغرض منها تخفيف ويلات الحرب بعض الشيء . ولكن كان حتى حدود التصرفات التى اقترحها مرعبة إلى حد كبير . وكمثال فقد قبل قتل أسرى الحرب والمدنيين . كما لاحظ أن الحياة الإنسانية قد اتخذت اتجاهاً « بغيضاً ووحشياً وقصيراً » ولم تكن العاطفة الدينية ضرورية كعامل مؤثر إنسانى كما كان يأمل جوستاف . ولم يصلح أى عقاب روحى يمكن أن يسود فى مواجهة الضروريات السياسية والإدارية . ويمكن أن نصور فى حالة فردية فظائع هذه الحرب عندما أحرقت « مجدبورج » وبها ٣٠٫٠٠٠ شخص حتى الموت . ولكن إذا جمعنا فظائع حرب الثلاثين عاما لوجدناها أسوأ كثيراً من ذلك فقد مات ٨ مليون شخص فى ألمانيا ، بينما بقى فى بوهيميا حوالى ٦٠٠٠ قرية فقط من مجموع ٣٥٫٠٠٠ قرية ، وقد قاست المناطق الغنية أكثر من المناطق الفقيرة . وحقيقة بقيت البروتستنتينية الألمانية ، ولكن قاست الحضارة الألمانية فى نواحى أخرى بعمق بل وربما دمرت تماما .

أما أنجلترا ، فلحسن الحظ ، بقيت بقدر الأمكان بمنأى عن حرب الثلاثين عاماً . .

ولكن فى أغسطس ١٦٤٢ بدأت فيها الحرب الأهلية . فكان يوجد خلاف قديم بين الملك شارل الأول وبين بعض القطاعات المعينة من الأثرياء والبارزين من رعاياه . ومنها مجموعات البيروتنية[١] والبرلمانيين[٢] . وقد تطور الأمر وظهر لشارل أن معظم مؤيديه من

(١) كانوا يطالبون بحرية العقيدة وبأن تصبح كنيسة الدولة أقل كاثوليكية فى ميولها .

(٢) كانوا يطالبون بحريات عامة أكثر وبطريقة حكم أكثر كفاءة من حكم شارل المطلق السيء .

« المعرب »

المناطق البعيدة عن لندن ، أما مؤيدوا الثورة الكبرى فكان معظمهم فى المراكز الصناعية والموانى وخاصة لندن . ولم ينحاز غالبية الشعب الإنجليزى إلى أى الطرفين مقدماً . واعتبر كلا الجانبين أن السيطرة على لندن هى مفتاح النصر . وفى مستهل الحرب لم يتمكن أى منهما من تكوين أكثر من حفنة من القوات ذات النوعية الجيدة . وتوفر للبرلمانيين ميزة فى مواردهم المالية والتى أستمرت طوال الصراع ، أما الملكيين فكانت لهم ميزة كبيرة فى وجود فرسان يقودها « روبرت » أمير الراين ، ولكن سرعان ما ضاعت هذه الميزة لإرتفاع مكانة « أوليفر كرومويل » .

عاهرة بابل الصغيرة (أنظر اللوحة رقم ٢٧)

وكان كرومويل من ملاك الأرض فى شرق أنجليا .



كرومويل

وفى عام ١٦٤٢ كان عمره ٤٣ سنة وبالرغم من ذلك لم يشغل منصباً قياديا فى البرلمان أو حتى لديه خبرة عسكرية سابقة.وكان كرومويل بيروتانيا نشيطا ، حاد المزاج لا يتردد فى أبداء رأيه بصراحة وبشكل مباشر . وقد أنضم إلى جانب البرلمانيين كقائداً للفرسان . وحضر القتال عند « أدجهيل » فى أكتوبر ١٦٤٢ . وأدت تجربته فى هذه المعركة الدموية ذات التخطيط الأحمق إلى سخطه مع الإستغراق فى تفكير عميق . وقد رأى كرومويل ضرورة إنشاء البرلمان قوة من الفرسان لتكون قادرة على هزيمة فرسان الملك .

وكان روبرت يسير على نهج جوستاف فى أحلال هجوم الفرسان بالسيف كالسلاح الرئيسى محل مناورة الفرسان المسلحة بالمسدسات والمعروفة باسم « النصف دورة » كما كان روبرت نفسه قائداً ممتازاً وشجاعا ، عنيداً جامحاً . وقد عرف بمعطفه القرمزى الكثير لزخرفة وجواده الأسود وقرده المدلل والذى سماه البيروتانيون « عاهرة بابل الصغيرة » .

ونتيجة لتفكير كرومويل أنشأ فى شتاء عامى ١٦٤٢ ، ١٦٤٣ فى شرق أنجليا آلايا من الفرسان . وقد أختار كرومويل أفراد هذا الآلاى بعناية فائقة فكان يقول : « لن يصلح لجنود هذا الآلاى الفاسدون والسكارى ولا من يطلق عليهم أسم الجنتلمان » وكان مبدأه يتضمن : — « قليل من الرجال المخلصين أفضل من مجرد الأعداد الكبيرة ومن الأفضل أن يرتدى القائد معطف بسيط غير مزخرف فى نفس الوقت يعرف ويؤمن بالهدف الذى يقاتل من أجله ، ويكرس حبه وإخلاصه لكل ما يتعلمه » .

وكان الدين أساس الضبط والربط ، أما التدريب فكان صارماً وقاسياً . وسلحت رجاله بالسيف والقربينة[1] وزوج من المسدسات ، وكانوا مدربين على كيفية إستخدام هذه الأسلحة بمهارة باهرة ، أما دروعهم الوقائية فكانت عبارة عن لوحة معدنية للصدر وأخرى للظهر وخوذة ومعطف من جلد الجاموس ، وكانت تدفع لهم الأجور بانتظام . كما حوفظ على الضبط والربط وفى صرامة متناهية ، وكانت عقوبة النهب قاسية . وفى مايو ١٦٤٣ دخل الآلاى أولى تجاربه فى صدام دام مع الجيش الملكى عند جرانتام . وقد عبر عنها كرومويل بقوله : —

« هبطنا عليهم مندفعين ، بينما وقفوا بصلابة لأستقبالنا ، ولكن رجالنا أنقضوا عليهم بعنف وقد هزمناهم على الفور بفضل ما حالفنا من العناية الإلهية » .

وبعدها كتب كرومويل إلى صديق يقول له : — « إن لدى صحبة محببة لنفسى من المسيحيين المخلصين المتزنين وهم بحق جنود ممتازين » .

وفى أحدى المرات ذكر لى السير ونستون تشرشل بأننى شخصية كرومولية لأننى على حد قوله : —

« أننى أسعى دائماً إلى شيئين . . . تمجيد الله . . واستخدام الذخيرة » .

أما الإختبار الحقيقى لفرسان كرومويل « ذو الأجناب الحديدية » (وقد سموا بهذا الإسم فى يولية عام ١٦٤٤) عند « مارستون مور » ، ولم تكد المعركة تبدأ حتى اكتسح روبرت بهجومه ثلاثة أرباع جيش كرومويل وأطاح بهم خارج ميدان القتال، وقام بمطاردتهم

---

(١) طولها حوالى ٢ ½ قدم « المعرب »

لمسافة كبيرة ، أما ربع الجيش البرلمانى الذى ثبت كان من ضمنه الآلاى الذى شكله كرومويل وتقدم هذا الآلاى ليهاجم والركبة فى الركبة وبسرعة مناسبة وليس فى اندفاع متهور بينما لم يمسك الصف الأمامى بنيرانه إلا فى اللحظات الأخيرة ، وفى هذه اللحظة أنقض الآلاى على جناح المشاة الملكية محطماً إياه بعد قتال ضارى طويل . وإذا كان روبرت هو الذى أدخل تكتيكات الفرسان السويدية إلى إنجلترا ، فكرومويل هو الذى استطاع وضعها فى أفضل استخدام .

والآن فقد ذاعت شهرة كرومويل سواء كمدرب أو كقائد للفرسان ، بينما حالت المكائد ومظاهر التردد من أن يستغل البرلمانيين النصر عند « مارستون مور » حتى نهاية الحرب . ولكن فى الشتاء التالى استطاع كرومويل إقناع البرلمان باصلاح الجيش . وأصبح « فيرفا كس » وليس كرومويل ، قائداً للجيش النظامى الجديد ، الذى شكل على غرار النظام الذى وضعه كرومويل فى شرق أنجليا .

وفى ذلك الجيش الجديد تكونت الفرسان من ١١ آلاى وضم كل آلاى ٦٠٠ فارس مسلح ومدرب ومجهز على نفس طريقة « الأجناب الحديدية » فيما عدا القربينة التى نبذ أستخدامها بشكل عام .وكان هناك آلاى واحد من الدراجون وقوتهم ١٠٠٠ مقاتل ومسلحين بالمسكيت والسيف ، واستخدموا الخيل للانتقال أو لأعمال المناوشة ، ولكن كانوا يقاتلون عادة وهم مترجلين .

أما قوات المشاة فتكونت من ١٢ آلاى ، وبلغت قوة كل آلاى أكثر من ١٠٠٠ رجل ، وكانت نسبة حملة المسكيت[1] إلى حملة المنخاس فى الآلاى نسبة ١:٢ . وقد أستبدل الفتيل كطريقة للأشعال بالزناد الدولابى الدوار الذى يشتعل باحتكاك حجر الصوان بلوحة معدنية الأمر الذى ينتج لهباً . وأصبح هذا السلاح أكثر شيوعاً لرخصه وأمنه وضمانه . ووصل مدى المسكيت إلى ٤٠٠ ياردة ولكنها إستخدمت فى المعركة على مسافات أقصر من ذلك . وفى الجيش الجديد لم يرتد حملة المسكيت أى دروع للوقاية بل أرتدوا معاطف حمراء

(١) كانت المسكت المستخدمة من النوع الجديد أى القصير والخفيف « المعرب »



اللوحة رقم ٢٧

انجلترا في نهاية الحرب الأهلية

وأصبح الزى الرسمى حتى نهاية القرن ١٩ . ونبذ إستخدام الخوذة المعدنية وحل محلها قبعة من اللباد عريضة الحافة .

وأصبح حملة المنخاس مسئولين عن الدفاع عن حملة المسكيت وكانوا يستخدمون منخاسا طوله ١٦ قدماً وذو رأس على شكل معين، وتزودوا أيضاً بسيوف ودروع وقائية ثقيلة . وكان يقاتل مشاة « الجيش الجديد » فى تشكيل خطى بعمق ٦ صفوف . أما بالنسبة لتنظيم المدفعية فكان هناك أربع فئات لمدافع الميدان ، وتتراوح هذه الفئات من « الـكولفيرن » والذى يقذف كرة زنتها ١٨ رطلا لمدى يصل إلى ٢٠٠٠ خطوة بواقع مرة فى كل ستة دقائق إلى « الدريك » والذى كان زنة كرة المقذوف ٣ أرطال بواقع مرة فى كل أربع دقائق . ومن الأرجح أن مدفعية الميدان الإنجليزية كانت أقل فى خفة الحركة ولـكن أكثر دقة من مثيلتها السويدية. وقد تم تشكيل وحدات لديها معدات قوية للحصار . وكان طاقم المدفع يتكون من المدفعجى و ٢ مساعدين يتولون أمر البارود والقذيفة .

الملك الهازم لنفسه (أنظر اللوحة رقم ٢٧)

كانت سلطة القائد العام فى الجيش البرلمانى مطلقة ، كما كان الترقى للضباط بالأقدمية بينما يرفت غير الصالحين منهم وبدون رحمة . وكانت هذه الفترة هى الوحيدة من نوعها فى الجيش البريطانى لما قبل نهاية القرن ١٩ حيث كان من الممـكن أن يترقى رجل ممتاز ومن أصل متواضع إلى رتبة الضباط . وكان التطوع هو أساس نظام التجنيد بشكل عام . وكان المسئول عن التدريب « سكيبون » ، بينما أحتفظ الضبط والربط بطابعه الدينى ، وكان منصب « رئيس إستطلاع الجيش » أو « مدير المخابرات » من المناصب الـكبيرة فى الجيش ، كما اعتبرت الإدارة الحـكيمة من الأهمية بمكان وفى المرتبة الأولى . فقد أصبح وليام كلارك والذى بدأ كسكرتير للجنرال مونك ، سكرتيراً لشئون الحرب[1] حتى بعد عودة الملك إلى عرشه نتيجة لعدم أمـكان الإستغناء عنه فى توجيه إدارة الجيش .

وفى يونيه عام ١٦٤٥ تمـكن الجيش الجديد من هزيمة الملـكيين عند « نسبى » ، وكان أسلوب المعركة تـكراراً لما حدث فى « مارستون مور » . ففى أول الأمر إكتسح روبرت

(١) وهو المركز الذى تطور فيما بعد وأصبح وزارة الحرب « المعرب »

الميدان ولكن كرومريل صمد فى موقعه لما كان يجيش فى نفسه من حماس دينى ، ثم هاجم فى اللحظة المناسبة محتفظاً بسيطرته على جنوده حتى النهاية . .

ونخرج من «مارستون مور» و « نسبى » بأن كرومويل قائد ممتاز للفرسان . ويرجع ظهوره كقائد ناجح إلى الفترة التى تلت هزيمة شارل الأول ، أى فى الفترة التى إستمر فيها القتال ضد الإسكتلنديين والملكيين وكان فيها كرومويل قائداً عاما .

وفى عام ١٦٤٨ عند« برستون » أستطاع كرومويل أن يهزم عدواً أكبر عدداً ولكنه غير مستعد وتقوده قيادة هزيلة . وإذا كانت هناك مظاهر جديرة بالملاحظة فى هذه المعركة ، فهى مظاهر حدثت قبل المعركة وبعدها . فقبل المعركة قطع كرومويل ٢٥٠ ميلا خلال أرض صعبة وطقس سىء فى ٢٦ يوماً بغرض مفاجأة العدو قبل أن ينظم صفوفه . وبعد أن هزم كرومويل عدوه قام بمطاردته بدون هوادة حتى يتأكد أنهم لن يستطيعوا إعادة تنظيم أنفسهم كجيش مقاتل مرة أخرى .

وفى عام ١٦٥٠ عند « دنبار » فاجأ العدو كرومويل وهو فى موقف لا يحسد عليه ، فقد حاصرته قوات العدو بقيادة قائد قدير هو « ليسلى » فى وادى يطوقه البحر وكانت قوات « ليسلى » تفوق جيش كرومويل بنسبة ٢ : ١ . وبدأ الضعف يتسلل إلى معنويات رجال كرومويل تحت وطأة الطقس الردىء والتكتيكات الغابية[1] ، ولكن كان ليسلى مشا كله هو أيضاً ممثلة فى الطقس وعقول رجال الكنيسة الغير عسكرية والذين ألحوا عليه طوال الوقت بالهبوط ومهاجمة كرومويل . ورضخ ليسلى لرغبتهم وترك موقعه أعلى التل وتحرك بجيشه إلى أسفل منتشراً على شكل قوس يمتد ٣ ميل من سفح التل إلى البحر . وهنا أدرك كرومويل أن هذا التحول من جانب ليسلى قد أعطاه الفرصة لكى يهاجم ويشق طريقه قتالا إلى خارج الوادى .

وأصبح الجيش الأسكتلندى هدفاً معرضاً وممتداً بدون نظام ، وهذا ســـاعد الجيش الإنجليزى المنظم والأكثر إحكاماً على مفاجأة جناح العدو الأيمن الأقرب إلى البحر بالهجوم ثم الدوران بعدها إلى الداخل موجهاً ضربته إلى المنتصف . وكانت هذه هى خطة كرومويل.

---

(١) التكتيكات التى تتجنب الأشتباك بقدر الأمكان . « المعرب »

وقد أمضى الجيش الأسكتلندى الذى لم يتوقع حدوث أى شيء فى ليلة عاصفة ، فاطمأن ولم يستعد للمعركة .

وعند الفجر انقضت عليهم مقدمة[1] الجيش الإنجليزى ولمدة دقيقة أو دقيقتين لم يكن بمقدور الأسكتلنديون حتى الرد على النيران الإنجليزية نتيجة لعدم اشتعال فتائل بنادقهم وتبع هذه الفترة قتالا عنيفاً وصدت أول موجتين للمشاة الإنجليزية ، وعندئذ دفع كرومويل باحتياطيه إلى ميدان المعركة ، وقد وصلوا فى الوقت المناسب لحسم المعركة . وعلق شاهد عيان قائلا : — « لم أشهد قط هجوماً رهيباً للمشاة مثلما رأيت » . ثم هاجمت الفرسان الإنجليزية وأصبح الأسكتلنديون كما وصفهم كرومويل : — « لقد جعلهم رب الجنود كالجذامة[2] أمام سيوفهم » . وانتهت المعركة فى غضون الساعة ، وقتل ٣٠٠٠ اسكتلندى بينما أسر ١٠٠٠٠ آخرين ، واستولى الإنجليز على ١٥٠٠٠ قطعة سلاح وجدت فى أرض المعركة .

وقد تم هذا النصر نتيجة لعملية المفاجأة التى حسبت بعبقرية ، فقد كان انتصاراً للأعصاب الأقوى والضبط والربط الأعلى .

وربما يكون من أعظم مآثر كرومويل العسكرية والتى لفتت الأنظار ، تلك الإستراتيجة التى قادت إلى معركة « وركستر » عام ١٦٥١ .

ففى يونيه من ذلك العام عثر كرومويل على ليسلى ومعه قوة كبيرة من الأسكتلنديين المتمركزين بقوة فى التلال الواقعة جنوب « ستيرلنج » وكان كرومويل تواقا لاستدراجه للقتال ، فعلى الفور لم يهاجم كرومويل قاعدته وعبر خليج « فيرث » مهدداً بذلك مواصلات ليسلى مع الشمال . وأصبح لسيلى يواجه الآن أحد أمرين : إما القتال فى موقعه الضعيف الآن عند سترلنج أو التحرك جنوباً . وسقط ليسلى فى الشرك المنصوب له وغزا إنجلترا . وقد قدر كرومويل أن الجيش الملكى الأسكتلندى لن يجمع امدادات كثيرة لما سيلقاه من تأييد شعبى ضعيف ، بينما سيستطيع كرومويل جمع قوات احتياطية وإمدادات كثيرة من إنجلترا.

---

(١) كانت مشكلة من ٦ آلاف من الفرسان و ٣ آلاف من المشاة .

(٢) الجذامة ما يبقى من الزرع بعد الحصاد . « المعرب »

وتقدم الملكيون حتى « وركستر » وبدأت قواتهم تتضاءل تدريجيا حتى وصل مجموعها إلى ١٢٫٠٠٠ رجل فقط ، أما كرومويل الذى تحرك جنوباً ثم اتخذ مساراً أكثر ميلا نحو الشرق فى اتجاه « وركستر » وأخذ يجمع قوات كثيرة من مختلف الجهات أثناء تقدمه .

وقام « لمبرت » و « هاريون » ومعهما ١٢٠٠٠ رجل بهجمات متكررة على مؤخرة الملكيين حتى أنهكهم ، بينما قام « فليتوود » بسد الطريق إلى لندن فى مواجهتهم . وأخيراً سقط الملكيون فى الفخ عندما وصل كرومويل إلى « إيفشام » والتى تقع على بعد عدة أميال من « وركستر » حيث استطاع فى نهاية أغسطس أن يشكل جيشاً قوامه ٢٨٫٠٠٠ رجل . ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى نشبت المعركة ، وكم كانت معركة قاسية ولكن نتيجتها كانت محتومة . وقد أنهت معركة « وركستر » المقاومة الملكية المسلحة . وأصبح كرومويل من هذا الوقت حتى موته عام ١٦٥٨ حاكما على إنجلترا . وخلال حكمه ، فقد تحول نجاحه السياسى تحولا غير عادى ليصبح هازماً لنفسه ، لأنه بينما كان يتطلع لإعطاء بلاده حكما دستوريا مقبولا ، فقد ظل الجيش هو السند الوحيد لقوته . وكان هذا مشكلة أجهدته فلم يستطع إرضاء أى من العسكريين أو المدنيين ، وتحولت شجاعته ومهارته العسكرية لتصبح تردداً وعنفا سياسيا . وشعوره المطلق بصلاحيته ورغبته المتقدة فى عمل الصواب خدمته كرجل عسكرى ، ولكن خانه هذا الشعور وتلك الرغبة الآن .

ومن المحزن أن كرومويل سوف يذكر أكثر لدكتاتوريته السيئة الحظ عن تذكره لمثاليته وشجاعته وعبقريته كمدرب وكقائد للفرسان وكاستراتيجى . ولكن هناك ظاهرة واحدة من أعماله برهنت على فاعليتها وقدرتها على البقاء ألا وهى تطوير القوة البحرية وإنشاء الإمبراطورية .

سيدة البحار

فى النصف الأول من القرن ١٧ ، كان الشعب الهولندى هو أمهر الشعوب فى فن البحر ، ذلك الشعب الذى استطاع استغلال موقعه الجغرافى الممتاز ونزعته الوطنية للتجارة ولأعمال البحر ، ووصل فى عام ١٦٥٠ إلى ذروة الثراء نتيجة لسيطرته سيطرة فعلية على النقل

البحرى الدولى وعلى مستعمرات فى أجزاء كثيرة من العالم . وعلى أى حال فقد بنى الشعب الهولندى نجاحه فى الفترة التى انشغلت فيها إنجلترا وفرنسا فى كبح قوة أسبانيا مما عاد بالكسب على هولندا . ولكن عندما تلاشى التهديد الأسبانى وجدت هولندا نفسها تواجه شبح المنافسة من عدة دول على رأسها إنجلترا .

ومن الناحية الاستراتيجية كان لإنجلترا موقعا لا يبارى إذا سارت فى سياسة بحرية طموحة .

أما فرنسا فكان عليها أن تركز قبل كل شيء على المشاكل فى داخل أوروبا وحماية حدودها .

أما إيطاليا فكانت لا تزال تجوب مياه البحر بسفن القوادس . وكانت هولندا دولة « صغيرة » ومفككة إلى حد ما ويجب عليها أن تتحد وتحمى حدودها البرية .

أما إنجلترا فكانت عبارة عن جزيرة ذات موقع ممتاز ، فهى تستطيع من موقعها خارج ساحل أوروبا أن تراقب خصومها فى الشمال كما يمكنها من موقعها الداخلى اعتراض أساطيلهم . وتوفر أيضا لإنجلترا موانى جيدة وسواحل آمنة بالرغم من أنها كانت محتاجة للدفاع عنها .

وقد بدأ التحدى الإنجليزى لهولندا فى عهد شارل الأول الذى كون أساطيله من ضريبة السفن [1] الشهيرة وذلك فى الثلاثينيات من القرن ١٧ .

وبعد فترة الإنشغال نتيجة للحرب الأهلية جدد كرومويل السياسية البحرية الهجومية يؤيده فى ذلك رأى عام تجارى . وقد كانت النقطة الرئيسية فى النزاع مع هولندا هى الميول الاحتكارية ومشكلة حقوق الصيد فى بحر الشمال . وأوجدت المصادمات العرضية على خلق شعور عنيف بالعداوة والتعصب .

وفيما بين عامى ١٦٥٠ ، ١٦٥٢ أقر الإنجليز ثلاثة قوانين بحرية تهدف إلى اقصاء

---

(١) ضريبة تفرض على المرافىء وغيرها لتعزيز الأسطول الوطنى .

« المعرب »

هولندا من إحتكار النقل البحرى . وقد خشى الإنجليز أن ترد هولندا على هذا بالانتقام وقطع وصول أخشاب بناء السفن من البلطيق، ولذا فتح كرومويل استيراد الخشب من أمريكا الشمالية ، كما أرسل حملة للاستيلاء على جاميكا . وفى نفس الوقت عمل برنامج ضخم لبناء السفن ، وفى عام ١٦٥٢ كان قد أضيف ٣٠ سفينة قتال جديدة إلى الأسطول الإنجليزى المتكون من ٣١ سفينة والذى ورثه كرومويل من شارل الأول . وفى تلك الفترة تطور تصميم السفن الحربية من غليون الأرمادا ، وأصبح الاختلاف الرئيسى للسفن الحربية فى عهد شارل الأول فى الحجم فقط .

وقد صنعت آنذاك أول سفينة إنجليزية من ثلاثة أسطح وتحمل ١٠٢ مدفع أى تزيد ثلاث مرات تقريباً عن عدد مدافع سفينة دريك . ولكن سرعان ما تبين أن هذا النوع والذى سمى « سيدة البحار » به من المدافع ما يفوق حجمه لذا كان إبحاره سيئاً . وفى فترة الخمسينيات بنيت سفن أصغر وكانت تحمل مابين ٣٠ — ٦٠ مدفعاً . ولكن عادت السفينة ذات الأسطح الثلاثية مرة أخرى إلى الوجود .

وفى الفترة ما بين ١٦٦٠ — ١٦٧٠ بنيت ٩ سفن كان حمولتها أكثر من ١٠٠٠ طن . أما هولندا فلم تستطع بناء سفن ذات حمولات كبيرة لضحالة مياه سواحلها وبالتالى لم يكن لديها سفن ذات الأسطح الثلاثية ، ولم يكن فى إمكان سفنها حمل أكثر من ٨٠ — ٩٠ مدفعاً على الأكثر ، وكانت هذه السفن أقل كفاءة عند الإبحار ضد اتجاه الريح . ولكن هولندا طورت منذ القرن ١٦ الشراع والصارى بدرجة كبيرة ، فقد كبرت منطقة الشراع مع إضافة شراع ثانى مزينى [1] وأيضاً شراعا مثبتا فى كل من مقدمة ومؤخرة السفينه . ولم يطرأ على هذه الأشرعة إلا القليل حتى معركة الطرف الأغر .

وفى عام ١٦٧٠ وصلت المدافع إلى الشكل الذى ظل محتفظة به لحوالى ٢٠٠ سنة بدون

---

(١) المزين هو الشراع المنصوب على صارى فى مؤخرة السفينة « المعرب »

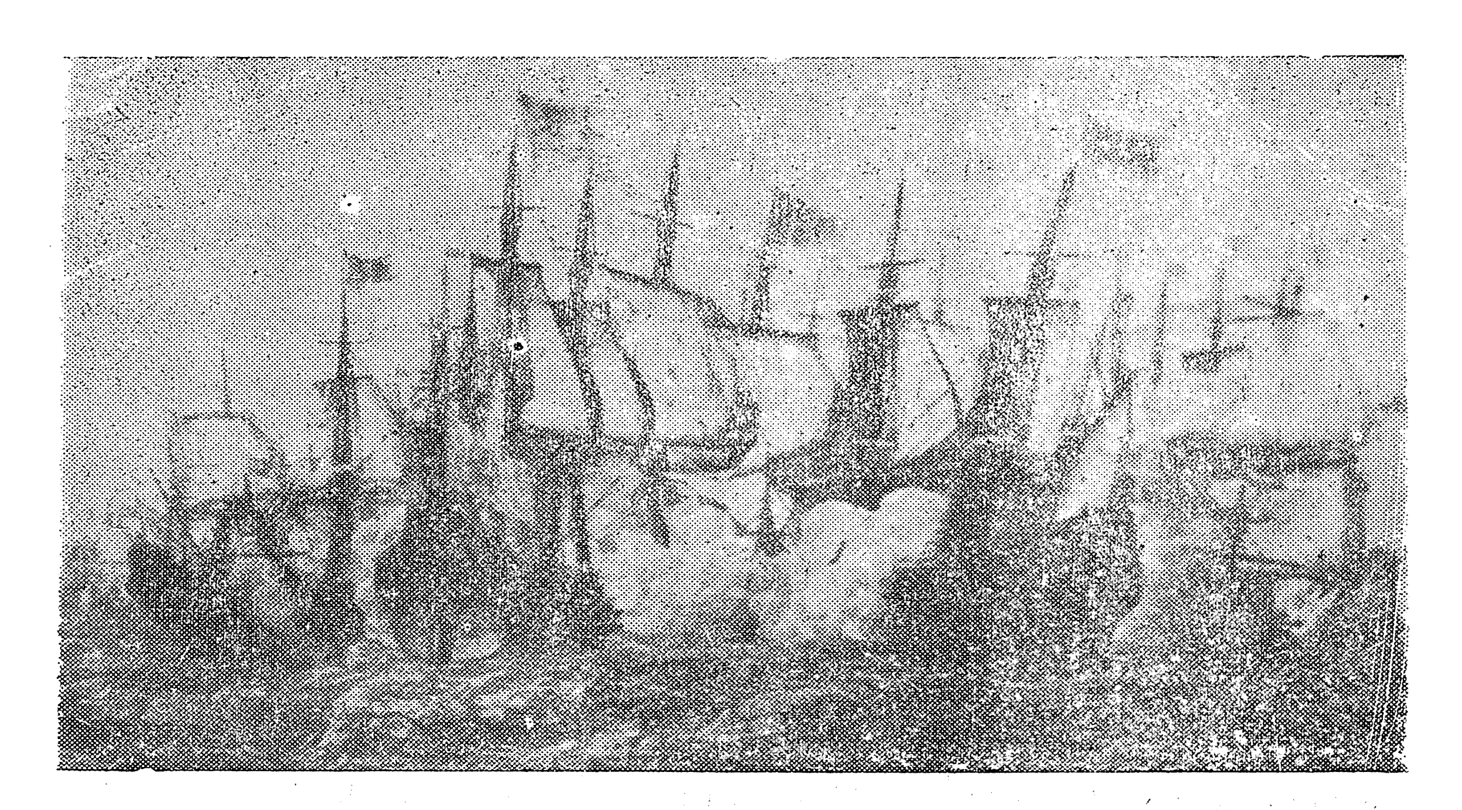
تغيير . وأصبح المدفع يسبك كقطعة واحدة وبماسورة ذات تجويف أملس ، أما السطح الخارجى للماسورة نتناقص عرضه تدريجيا من التراباس حتى فم الماسورة ، ومحور ارتكاز المدفع كان مثبتا فى جسم الماسورة ويوضع كراسى تحميل فى عربة المدفع . وأصبح رفع وخفض المدفع يتم برفع الماسورة إلى أعلى بواسطة مسامير ضخمة ثم بعد ذلك بايلاج أوتاد خشبية معلمة فى درجات أسفل الماسورة . وكان المدفع يوجه يميناً ويساراً بواسطة تحريك العربة بالكامل حركة دائرية .

والآن أصبحت المنافسة بين الإنجليز والهولنديين صريحة وعنيفة ، وفى عام ١٦٥٢ نشبت الحرب ، وعبء كل منهما أسطولا من حوالى ٨٠ سفينة ، وكانت سفن الأسطول الإنجليزى أفضل فى التسليح والنوع ، أما السفن الهولندية ذات الغاطس القليل أستطاعت استخدام الملاجىء ذات المياه الضحلة فى المانش كمأوى لها ، وكان الأدميرالان الهولنديان «مارتين ترومب» «وميشيل دى ريتر» يعتبرا أكفأ قادة البحر فى العالم . فكان «ترومب» قائداً بارعا سريعا هادىء التفكير بينما كان «ريتر» رياضيا ورساما للخرائط وداهية واسع الحيلة . وكان ضباط الجانب الهولندى قباطنة تجاريين لديهم خبرة كبيرة ، بينما كان الضباط الكبار فى الأسطول الإنجليزى فى الأصل جنوداً ومقاتلين جيدين ولكن لم تكن لديهم أى خبرة بالبحر .

وكان القائد الإنجليزى عقيداً فى المدفعية إسمه «روبرت بلاك» وانخرط فى الحرب البحرية وعمره ٥٠ عاما .

أما غرض إنجلترا من الحرب ، فقد عبر عنه ببساطة «جون مونك» قائلا : — «إن ما تريده لهو أكثر من مجرد التجارة التى يتطلع إليها الهولنديين» . وأصبحت استراتيجية إنجلترا بالتالى هى الحصول على السيطرة البحرية فى مياه المانش الإنجليزى ، وحماية قوافلها التجارية فى هذه المياه .

وكان على الهولنديين تسديد ضربة لهذا التحدى الإنجليزى ، ولذلك سعى كلا الجانبين لتدمير أسطول الآخر فى المعركة .



معركة بورتلاند بين الأسطولين الإنجليزى والهولندى

ومن الناحية التكتيكية استخدم الإنجليز تشكيلات الخط المتقدم ، ولكن الخبرة والنظام لم يتوافرا بشكل كاف لتحقيق هذا التشكيل ، ولذا من الناحية العملية قاتلت السفن الإنجليزية فى مجموعات محشودة تعتمد كل منها على مؤازرة الأخرى وتسعى إلى عزل مجموعات العدو وقصفها ثم إعتلائها . وكان الطرفان يدركان ميزة الإبحار مع اتجاه الريح خلال المعركة وكان الهولنديون أفضل فى استغلال هذه الميزة لكونهم ملاحين أفضل من الإنجليز .

واستغل الهولنديون ميزتهم ووجهوا قذائف مدافعهم إلى أعلى بغرض تدمير صوارى وأشرعة العدو حتى يصبح من المستحيل عليه الهرب فى عكس اتجاه الريح . ونجحت هذه التكتيكات الهولندية فى المعارك الأولى .

وعلى سبيل المثال فى نوفمبر ١٦٥٢ استطاع « ترومب » ومعه أسطول متفوق من هزيمة « بلاك » أمام مياه « دنجينس » .

وبعد هذه المعركة علق « ترومب » مكنسة فى أعلى صارى سفينته دلالة على أنه كنس

ونظف البحار من عدوه . ولكن فى فبراير عام ١٦٥٣ أنقلب الوضع بإنتصار « بلاك » أمام مياه « بورتلاند » . وفى هذه المعركة كان « ترومب » يحرس أسطولا تجاريا بـ ٧٥ سفينة قتال عندما أعترضه « بلاك » ومعه ٥٥ سفينة قتال . وفى الحقيقة كان الإنجليز أقل عدداً ولكن سفنهم الحربية أفضل كما لم تكن معهم قافلة تجارية تعوق تحركاتهم . ودارقتال متواصل بين « جريسنيز » و « بورتلاند » وكان القتال فى اليوم الأول غير حاسم نظراً لأن الأسطول الإنجليزى كان لايزال متفرقا . ولكن فى صباح اليوم التالى تجمع الأسطول الإنجليزى وفى نفس الوقت بدأ البارود فى التناقص لدى الهولنديين . وخاض « ترومب » عملية إنسحاب رائعة ، قامت فيها سفنه بالقتال فى معركة مؤخرة عنيدة إلى أن نفذت الذخيرة وتحولت عملية الإنسحاب إلى هزيمة منكرة . ولكن « ترومب » نتيجة لمهارته الملاحيه العالية تفادى الكارثة الكاملة لقواته ، فقد إستطاع التخلص من المعركة فى النهاية بعد أن خسر ١١ سفينة قتال و ٣٠ سفينة تجارية . ومنذ ذلك الوقت أصبح الإنجليز أكثر مراناً على تكتيكات الخط المتقدم . وقد أجبر إنتصارات آخران للانجليز وموت « ترومب » أن تتفاوض هو لندا من آجل السلام فى أوائل عام ١٦٥٤ . وأدرك الإنجليز الآن أن الحرب البحرية تتطلب إدارة حديثة وسفناً ملائمة وبحارة محنكة ، وتطلب هذا فى الواقع أشراف الدولة على الأسطول . وسار برنامج بناء السفن بخطى واسعة للامام ، ومع حلول عام ١٦٦٠ كان الأسطول الإنجليزى يتكون من ٢٣٠ سفينة قتال . كما أصبحت الدولة هى التى تعين القادة وتوفر أماكن بناء السفن وتجهيزها وترميمها ، كما أصبحت الدولة مسئولة عن أعالة الأسطول وتجنيد أفراده . وكان التجنيد يتم أساساً بواسطة كتيبة التجنيد[1] .

وأدخلت الدولة التحسينات على أحوال البحارة من رعاية صحية للمرضى والجرحى والعجزة منهم كما منح البحارة رواتب شهرية .

وفى عام ١٦٦٠ أصبح شارل الثانى ملكا على إنجلترا واستمر فى إتباع سياسة كرومويل البحرية وقد أعطى الأسطول لقب « البحرية الملكية » . وفى عام ١٦٧٣ أصبح « صمويل بيبز »

---

(١) كتيبة يقودها ضابط مكلفة بإكراه الأفراد على الالتحاق بالجيش أو الاسطول . « المعرب »

سكرتيراً لمكتب البحرية[1] والمسيطر على إدارتها ، فقام بأدخال إصلاحات هامه تضمنت إختبارات للضباط وتحديد حد أدنى لمدة خدمتهم .

واضعاً بذلك قواعد الخدمة الدائمة للضباط البحريين المحترفين . وقد أطلق عليه مؤرخ حياة « صمويل بيبز » « السير أرثر برنيانت » لقب « منقذ البحرية » .

ومرة أخرى عام ١٦٦٥ دخلت إنجلترا الحرب مع هولندا ، ولم تتغير الإستراتيجية فى هذه الحرب عما كانت عليه فى الحرب السابقة (١٦٥٢ — ١٦٥٤) وكان القائدان الإنجليزيان هما « جيمس » دوق يورك شقيق الملك و« جورج مونك »وهومن العسكريين . أما الأسطول الهولندى فكان يقوده « دى ريتر » . وفى عام ١٦٦٧ قام «دى ريتر »بعملية رائعة إذ أبحر فى مياه نهر التايمز حيث أستولى ودمر أفضل قطع الأسطول الإنجليزى الذى أصابه الشلل .

وبعدها ، جاءت معاهدة « بريدا » ولكنهالم ترضى الإنجليز بالرغم من تخلى هولندا عن إقليم « نيو أمستردام »[2] وأعطاء إنجلترا كل ساحل أمريكا الشمالية المطل على الأطلنطى . وإندلعت الحرب الثالثة الإنجليزية الهولندية فى الفترة ما بين ١٦٧٢ — ١٦٧٤ ، وفى هذه الحرب تحالفت فرنسا مع إنجلترا . وبعد أربع معارك بحرية ضارية فضلت إنجلترا السلام ، ولكن القتال استمر بين هولندا وفرنسا من عام ١٦٧٤ حتى عام ١٦٧٨ . وخلال فترة الحياد بالنسبة لإنجلترا أستطاعت إنجلترا أن تتخطى هولندا وتسبقها فى القوة البحرية والتجارية .

ولكن أصبح على إنجلترا الآن أن تواجه فرنسا وسوف نرى فى الفصول التالية باقى المسيرة .

---

(١) وزير الحربية .

(٢) لقد أعيد تسميته إلى نيويورك على اسم الأدميرال الانجليزى .

الفصل الثالث عشر

عصر مارلبورو

حرب الارث الأسبانى

فى عام ١٦٥٠ ولد « جون تشرشل » وهوابن السير «ونستون تشرشل» أحد أصحاب الأرض فى « دورست » . وفى عام ١٧٢٢ مات « جون تشرشل » كأول دوق لمارلبورو . ومن بين جميع الشخصيات العسكرية التى ظهرت على مسرح الأحداث فى ذلك الوقت ، والذين سنتناولهم بالدراسة ، سنجد أن مارلبورو كان أعظمهم جميعاً ، فقد كان عبقرياً فى المواضيع العسكرية مع تمتعه بمهارة دبلوماسية فذه . ودائماً كنت أعتبره صاحب الفضل فى رفع الجيش البريطانى حتى أصبح فى المقام الأول بالنسبة للجيوش الأوروبية . وقد رأينا فى الفصل ١٢ ظهور السويد كقوة رئيسية بقيادة «جوستاف » كما أصبح الجيش الفرنسى أقوى الجيوش فى أوروبا ، أما فى هذا الفصل سوف نرى أفول نجم السويد خلال حكم شارلز الثانى عشر والتدهور المؤقت لفرنسا .

وسوف نرى أيضاً تأثير التحصينات على الحرب والذى طورها فوبان . وجاء «مارلبورو » ليمنع هذا العامل (تأثير التحصينات) من شلل مقدرة القيادة العسكرية . وكان ذلك العصر هو عصر الفرسان ، ولكن عندما ظهر السونكى المجوف فى النصف الثانى من القرن رفع من منزلة جندى المشاة ووضع نهاية لحاملى الرماح .

وبعد حرب الثلاثين عاماً ، كان العامل الرئيسى فى سياسة أوروبا هو النزعة العدوانية لفرنسا خلال حكم الملك لويس الرابع عشر . وفى الفترة مابين توليه سلطاته الملكية الكاملة فى عام ١٦٦٠ ووفاته عام ١٧١٥ لم يسبب أحداً إزعاجاً لمدة أطول ممافعله لويس الرابع عشر ، فقد أشعل أربعة حروب كبرى هى : —

١ — حرب الأيلولة : — (١٦٦٧ — ١٦٦٨) وهو الأسم الذى أطلق على الحرب التى نشبت نتيجة لمطالبته ببعض الأراضى الأسبانية .

٢ — الحرب الهولندية : — (١٦٧٢ — ١٦٧٨) .

٣ — حرب التحالف الأعظم : — (١٦٨٨ — ١٦٩٧) .

٤ — حرب الأرث الأسبانى : — (١٧٠١ — ١٧١٣) .

وفيما بين فترات توقف القتال ، ظل نشاط لويس السياسى موجها لتحقيق مطامعه من الحرب وهى المجد .. والثروة .. وتوسع فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية على نهر الراين وجبال الألب والبرانس وكذلك كسر الحلقة التى يكونها الهسبرج . واتحدت جميع دول غرب أوروبا لمقاومة الفرنسيين ، ولكنهم لم يصمدوا فى الحروب الثلاث الأولى قبل عام ١٧٠٠ ، فقد كان لدى فرنسا قـــوة بشرية كبيرة وموارد طبيعية أكثر من أى دولة أخرى .

علاوة على أن لديها خطوطاً إستراتيجية داخلية وحكومة مركزية مطلقة. وأكثر من ذلك فكان بعض رجال لويس ذوى قدرات غير عادية . مثل « كولبرت » و « لوفوا » كانا إداريين من الطراز الأول ، و « كوندى » و «تورين » كانا من أبرز قادة العصر ، ثم يأتى « فوبان » عبقرى الهندسة العسكرية .

وكان « كولبرت » و « لوفوا » وزيرين لدى لويس وقد قدما له خدمات حيوية من حيث التبرير المنطقى لسياسته وتوفير الوسائل لتحقيقها . وقد وجه « كولبرت » أهتمامه بشكل أساسى بالموارد المالية والأسطول . وبعد الحروب الهولندية لم يطرأ أى تغيير فى التصميمات الرئيسية للسفن الحربية . فالدولة يمكنها تحقيق السيطرة والتفوق البحرى بمجرد زيادة عدد سفنها وقواعدها وتحسين وتطوير تنظيمها . وقد طور « كولبرت » البحرية الفرنسية بزيادة حجم الأسطول من ٢٠ سفينة حربية فى عام ١٦٦١ إلى أكثر من ٢٧٠ سفينة فى عام ١٦٩٠ . وهذا الأسطول أستطاع هزيمة الأسطول الأنجلو هولندى المشترك فى يونيه ١٦٩٠ عند « بيتشى هيد » إلا أن الحلفاء أخذوا بثأرهم فى مايو ١٦٩٢ فى معركة « لا هوج »[1] . ومن ذلك المعركة وأصبحت إنجلترا من أقوى الدول البحرية ، وأصبح لها السيطرة المطلقة على البحار فى حرب الأرث الأسبانى .

---

(١) بالقرب من سانت فاست على الشاطىء الشرقى من شبه جزيرة كونتين بنورماندى « المعرب »

النصر المفاجيء (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وكان أختصاص « لوفوا » فى إدارة الجيش ، وقد سار على نفس النزعه التى بدأت فى عصر جوستاف نحو زيادة الحجم والمركزية والتماثل والأحـتراف . ففى معركة « ركروا » حقق « كوندى » النصر على الأسبان عام ١٦٤٣ بجيش مكونا من ٢٣٫٠٠٠ مقاتل . وفى عام ١٦٧٢ قام لويس بغزو الأراضى الواطئة بقوة تعدادها ١٢٠٫٠٠٠ مقاتل ، وكان ٧٥٪ منهم من المشاة ولهم مدفعية ميدان خاصة بهم . أما فى نواحى التجنيد والتنظيم فقد أمكن القضـاء على الفساد والتقاليد الإقطاعية بقدر الإمـكان ، بوجود مراقبين من ذلك الطراز الشهير الذى كان يطلق عليه « مارتينت » (ويعنى الضـابط الصارم المتشدد) . وكانوا يشرفون على التدريب وفرض النظام الصارم بالقوة ، كما أنشأ نظام المستودعات للأمداد . ودرب الجيش تدريباً شاقا . وحل الزناد محل الفتيل فى البنادق والتى أصبحت السلاح الرئيسى للمشاة ، وأنشأت وحدات لقذف القنابل اليدوية وزادت أهمية المهندسين ، وأدمجت المدفعية بصورة أوثق مع باقى الجيش . وفى تلك الحقبه كان الأساس الحقيقى للقوة هو القدرة العسكرية ، وكان أمن السلطة الحاكمة يرتبط أرتباطاً وثيقاً بحجم وقوة الجيش العامل . وقد أدت كفاءة وزارة الحرب الفرنسية إلى نجاح الجيوش الفرنسية فى ميدان القتال قبل تسعينيات القرن ١٧ .

وفى النهاية فإن القيادية العسكرية الماهرة لـكل من « كوندى » و « تورين » هى التى أحرزت تلك الأنتصارات . وكانت موهبه هذين القائدين متعـادلة ، فـكان « كوندى » تـكـتيـكياً بارزاً بينما كان « تورين » أستراتيجياً ممتازاً ومنظماً فريداً . وبروح الأقدام ولـكن بهدوء وسعة الإدراك كان « كوندى » مصدر الإلهام لرجاله فى معارك حربية كثيرة وعلى مدى ٣٠ عاما بعد معركة « ركروا » .



تورين

وعلى العموم ، فى حرب هذه الحقبة التى كانت فيها المواصـلات رديئة والتحصينات القوية التى توفر النجاح لطراز معين من القادة ، برز « تورين » الذى يتميز بالصبر وبعد النظر ولمع أسمه فى الحروب

الأهلية عام ١٦٥٠ حينما قاتل ضد « كوندى » فقد أثبت أنه جندى أفضل من « كوندى » .

وإذا ألقينا نظرة على تورين لوجدنا أن مقدرته تكمن فى المناورة . فقد كان هدفه دائماً خلق موقف للقتال فى أكثر الظروف ملاءمة وفى الوقت والمكان الذى يختاره . ولتحقيق هذا الغرض ، درب رجاله على السير لمسافات طويلة ، وكان يضع خططه دائما بمنتهى الحرص وحسن التصور . وكان جنوده يعرفون ذلك جيداً ويثقون فيه ثقة عمياء ، لأنه كان يحرز أنتصاراته بأقل الخسائر فى الأرواح . وفيما بين ١٦٥٣ — ١٦٥٨ خلال الحروب الأهلية وفى مواجهته جيش يفوقه عدداً وعده وتحت قيادة « كوندى » ، نجح « تورين » فى المحافظة على جيشه متماسكا وعوض النقص فى العدد بخفة الحركة ، وبمداومة الأتصال بالعدو وأعاقة نشاطه حتى توفرت له القوة الكافية لقهره فى المعركة .

وفيما بعد ، زاد تورين من مجال نشاطه ، أما جرأته فقد قال عنها نابليون « أنها زادت بالخبرة على مر السنين » . ومع أتساع رقعة الأرض الألمانية ، أستطاع أن يستفيد أستفادة كاملة من عاملى الوقت والمسافة . وكان أعظم منجزاته هى حملة « تورخيم » عام ١٦٧٤ — ١٦٧٥ . ففى عام ١٦٧٤ كان واجب تورين هو تثبيت قوات العدو المتحالفة على جبهة نهر الراين الألمانى بينما كانت القوات الفرنسية تهاجم فى مكان آخر . وبعد أنتصاره فى معركتين صغيرتين أضطر للأنسحاب فى نوفمبر بعد أن تلقى العدو أمدادات كبيرة . وأثناء أرتداده للخلف إلى اللورين ، تحركت قوات العدو إلى معسكرات الشتاء وأنتشرت فى الألزاس . وكان الطقس سيئاً ونقصت الأمدادات ، ولم يتوقع العدو نشوب قتال فى ذلك الوقت ولا حتى فى باريس . ولكن تورين وجد الفرصة سانحة لتحقيق نصر مفاجىء . وقام بتجميع قوات أضافية بصعوبة بالغة حتى أصبحت قوته ٣٣٫٠٠٠ فى مواجهة قوات العدو التى تتألف من ٥٧٫٠٠٠ مقاتلا .

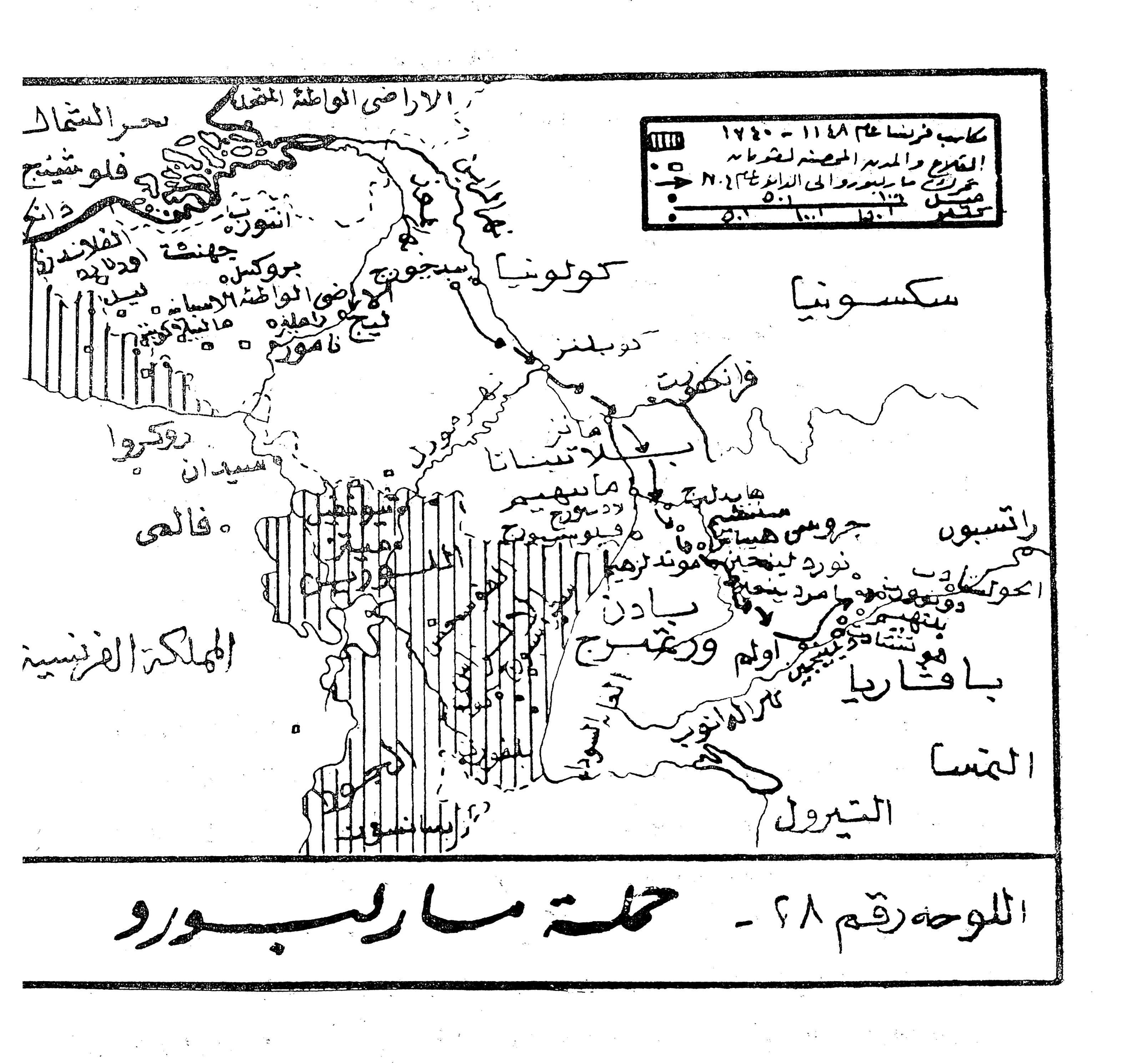
وفى نهاية ديسمبر تحرك عبر الجبال لتطويق العدو ، وخرج من ممر « بلفورت » الجبلى إلى الألزاس ولم يستطع الحلفاء حشد سوى جزء صغير من قواتهم بسرعة بالقرب من « كولمار » حيث هاجمهم تورين فى « تورخيم » ونتج عن أنتصاره أنه فى بحر ١٠ أيام لم يعد هناك أى جندى ألمانى على الضفة اليسرى لنهر الراين . وكان هذا هو آخر عملى بطولى ناجح لتورين

حيث لقى مصرعه فى الحملة التالية عام ١٦٧٥ . وعلى أى حال فى هـذا العصر فرضت قوة التحصينات قيوداً على القيادة العسكرية الإيجابية الماهرة .

نصف القرن ((أنظر اللوحة رقم ٣٨)

بعد أختفاء كوندى وتورين من مسرح الأحداث عام ١٦٧٥ ، كانت الشخصية العسكرية البارزة هى المهندس « سباستيان دى فوبان » . وكان فوبان هو المسئول عن أقامة التحصينات المنسقة للأجزاء المعرضة من الحدود الفرنسية طول فترة تزيد عن ٣٠ عاما من العمل النشط . فقد قام بتقوية الثغرة بين « الجورا » والفوسجس والتى تضـمنت « بلفورت » و « نيف بريساش » وأماكن أخرى . وخلال سنواتى العشرة التى قضيتها فى منظمة دفاع الأتحـاد الغربى وفى منظمة حلف شمال الأطلنطى ، قمت عدة مرات بأستطـلاع جبـال « الجورا » و « الفوسجس » وتحركت بالسيارة عبر ممر « بلفورت » بغية التعرف جيداً على المنطقة . وفى تلك الحقبة التى أكتب عنها الآن . وربما قبلها ، كان هذا الممر يعتبر طريق أقتراب جيد إلى المنطقة من جهة الشرق وكان لابد الدفاع عنه جيداً ، أما اليوم فليست له قيمة أستراتيجية لوجود القوات الجوية وأزدياد مدى وقوة الأسلحة الحديثة ، وبصفة عامة وسائل القرن العشرين فى شن الحرب .

وكانت « ثيونفيل » و « متز » من المناطق الرئيسية فى النظـام الدفاعى الآخر على أمتداد نهر « المورل » ، وفى الألزاس الشمالية . وكانت الفلاندرز منطقـة ذات أهمية خاصة للفرنسيين ويجب عليهم التحـكم فيها وإغلاقها ، لأنها عبارة عن سهل خصباً تستطيع أى دولة بحرية معادية لفرنسا أن تجمع قواتها فيه وتدفعها منه دون أن يعترضهم أى عوائق طبيعية . ولم يـكد يحل عام ١٧٠٢ حتى كان لدى فرنسا أكثر من ٣٠ حصنـاً من الدرجة الأولى وحوالى ٥٠ مدينة وقلعة أقل تحصينا فى تلك المنطقة بحيث أصبحت عبارة عن حاجز فرنسى هائل لايمـكن أختراقه . وقد طور فوبان عدة أفـكار حديثه فى التحصين ، ومنها بناء متاريس من الطين بدلا من الحجارة التى تتحطم وتتحول إلى شظايا خطرة قاتلة ، فى حين أن الحوائط الطينية أرخص وأكثر أمناً ، كما كان من السهل بناء حوائط ضخمـة منها . أما الفـكرة الثانية أن جعل حوائط الحصون على شـكل زاوية بدلا من الشـكل

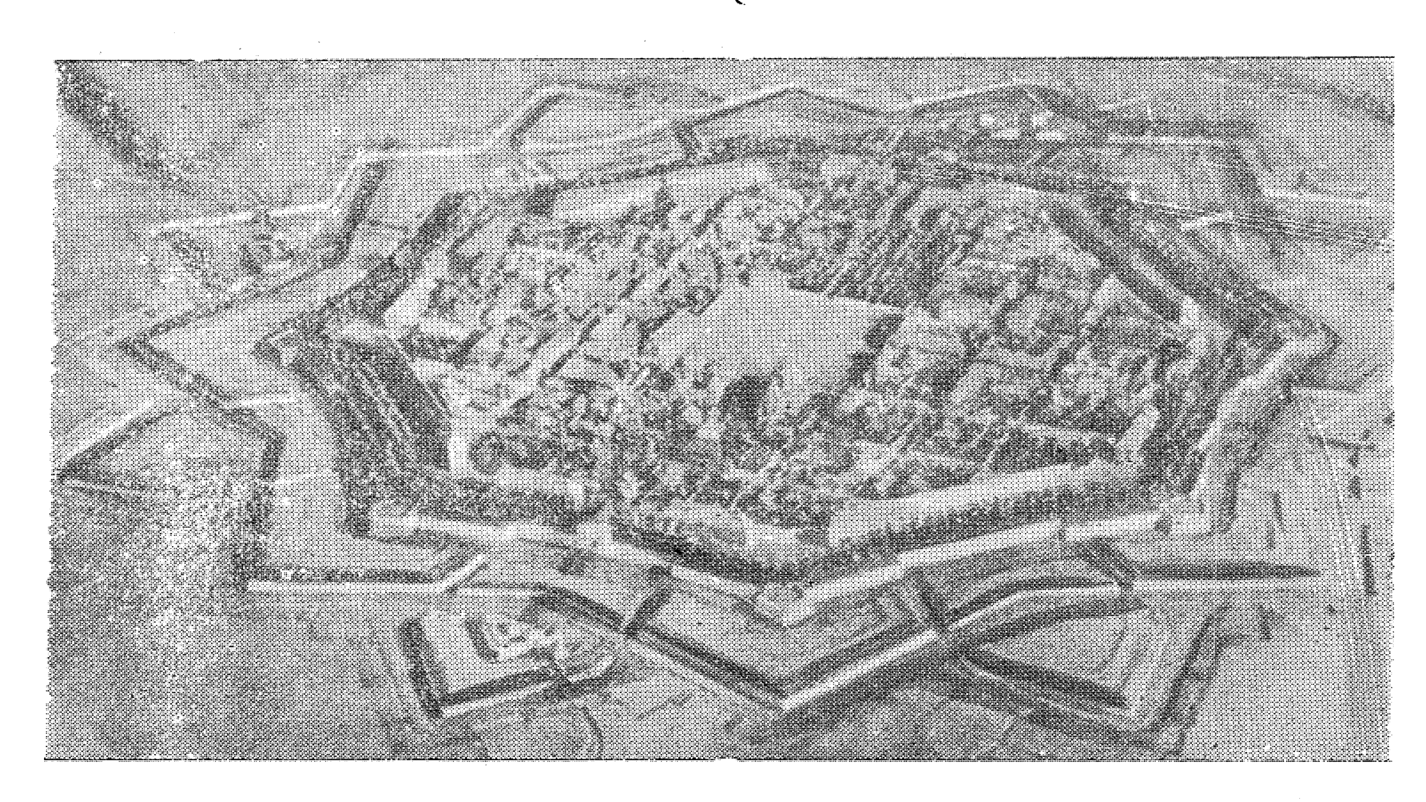


اللوحة رقم ٢٨ - حملة مارلبورو

التقليدى الدائرى ، مما يجعل من الممكن تغطية جميع أجزاء الأسوار بالنيران الجانبية ضد المهاجمين . وقد طبقت هذه الأفكار الجديدة إلى حد ما فى حروب منتصف القرن ١٦ ، ولكن حتى هذا الوقت لم يحاول أحد أن يتناولها بتفكير عميق وتطبيقها على أوسع نطاق .

وقد حولت أساليب فوبان هذا النوع من فن الحرب إلى تمارين هندسية وجعلت الدفاعات أضخم من أن تتيح للعدو القيام بالهجوم بالمواجهة . وقد استفاد فوبان دائماً وإلى أقصى حد من طبيعة الأرض لمساعدة الدفاع . وقد التزم فوبان ببعض القواعد الأساسية فى التحصين ، ولكنه لم ينتهج تخطيطاً ثابتاً . وظل مبقياً على التصميم الأساسى التقليدى للحصن من سياج داخلى ومتراس وخندق مائى ومتراس خارجى . وكان الحصن يظل سليما حتى يتمكن العدو من كسر الجزء الأكبر من تحصيناته .

ولذلك فكانت نتيجة الحصار تتوقف إلى حد كبير على قدرة هذا الجانب أو ذاك على الصمود أكثر من الآخر . وكان فوبان يميل إلى مد التحصينات الخارجية إلى أقصى بعد ممكن ، طالما توفر الوقت والمكان والمال ، وبذلك سوف يجبر العدو على أن يبدأ عمليات الحصار من مسافات بعيدة كما ضاعف الموانع فى طريقه ، وهكذا كانت العقبات تقف دائماً



حصن من تصميم فوبان

حجر عثرة فى طريق حصول العدو على أرض . فإذا سقطت التحصينات الخارجية فى يد العـــدو ، فسوف تظل السيطرة عليها مستمرة بواسطة النيران من التحصينات المركزية الرئيسية .

وقد مكنت مهارة فوبان الهندسية وعينه الخبيرة بالأرض من تصميم التحصينات بطريقة تجعل أى مواجهة محمية من الجنب ومدعمة بواسطة التحصينات التى خلفها وعلى أجنابها . وكان العنصر الرئيسى فى التصميم أياً كان حجمه أو مكوناته عبارة عن مثلث رأسه للخارج وبلا ضلع داخلى .

وكانت الرأس الخارجية للحصن تشكل هدفا صعباً للعدو وتجبره على تركيز قواته بطريقة تعرضها للخطر ، بينما كان كل ضلع يصنع زاوية مع الآخر بحيث يمكن تغطية منطقة الحائط فيما بينه وبين مواجهة النتوء التالى .

وكانت هذه هى القاعدة فى الحصون الكبيرة التى تقام عند كل زاوية من الهيكل الأساسى المخطط للتحصين والذى كان متعدد الأضلاع . وكانت تنتشر حصون أخرى صغيرة بين الحصون الكبيرة وعلى أمتداد مواجهة التحصينات بحيث تكون متقاربة من بعضها بقدر كافى يجعل كلا منها قادرة على تغطية الآخر بنيران الأسلحة الصغيرة .

وكان هناك مثلثات أخرى تعددت فى الحجم ، أطلق عليها « نصف القمر » وتحيطها خنادق جافة تبرز للأمام وتغطى كل منها الأخرى ومحمية من الخلف . وكانت التحصينات المتكررة من هذا الطراز تمتد عادة إلى مسافة ٣٠٠ ياردة من مركز التحصينات الرئيسى ، وكانت تشكل مواقع قوية أمام قوات الحصار . وأحسن مثال لأعمال فوبان فى التحصينات هى « نيف بريساش » و « ليل » . كما كان فوبان أيضاً أستاذاً بارعا فى فن الحصار الهجومى فكانت الطريقة المضادة للحصار قبل عصر فوبان ، عبارة عن الأقتراب من الأسوار بواسطة خنادق متعرجة إلى أن تصل المدافع إلى مدى الضرب المؤثر . وطالما أن العدو المحصور لديه القدرة على تركيز النيران على خندق الحصار ، فكان الهجوم يصبح قليل الفاعلية وباهظ التكاليف فى الأرواح . والابتكار الذى قدمه فوبان هو أستخدام خنادق تصل بينها خنادق متعرجة ، وبذا أصبح فى أمكان المهاجم تركيز نيرانه ضد نقطة معينة فى

الدفاع وكذا شن هجمات متفرقة فى وقت واحد . كما أن فوبان هو الذى أدخل استخدام نيران السكترما ، بإطلاق الطلقات فوق الدروة الأمامية لتسقط على المدافعين المخندقين خلفها.

وكان من المعتاد بمجرد أن تحدث ثغرة فى الدفاعات ، يطلب من المدافعين الإستسلام فى أحتفال عسكرى ، وإذا لم يذعنوا ، يقتحم المهاجمون الدفاعات بلا هوادة . وعند دراسة تحصينات فوبان فسوف يبدو أنه إذا أريد مهاجمتها فيجب أن يتولى التخطيط للهجوم مهندسون حتى يمكنهم من خلال تطبيق المعادلات الرياضية أن يوصلوا خنادقهم ويضعوا بطاريات المدفعية فى أماكن معينة بحيث يجد القائد المدافع عن الحصن وقد وقع فى ورطة .

وظلت أساليب فوبان فى التحصينات والحصار شائعة الإستعمال حتى أواخر القرن ١٩ عندما غيرت زيادة مدى المدفعية من مشاكل الدفاع والهجوم ، وكان ذلك النوع من التحصينات يمكن التغلب عليه بشكل عام . ولكن الحصار الناجح كان يتطلب دائماً وقتاً طويلا ومهارة خاصة فى الرياضيات كما ذكرت . وكانت النتيجة أنه فى نهاية القرن ١٧ أدت التحصينات الكثيفة والقوية للحدود الفرنسية إلى أبطاء سرعة الحرب حيث أعاقة الحركة ووفرت الحماية بملاجئها وسواترها ، وأمتصت القوة البشرية .

الجيش الدولى

أثناء حرب التحالف الأعظم (١٦٨٨ — ١٦٩٧) حدث عدد قليل من المعارك ذات الأهمية ، ولكن حدث الكثير من عمليات الحصار ، وبدا أن الفرنسيين ينتهجون استراتيجية ناجحة ، ففى الحرب التالية التى بدأت فى عام ١٧٠١ قاموا بإعادة تطبيقها مرة ثانية . ولكن فى هذه الحرب (حرب الأرث الأسبانى) كان يقود جيش الأعداء المتحالفين ضد فرنسا أحد عباقرة قادة الحرب وقد أظهر مقدرة عظيمة عندما واتته الفرصة ، وقد تخطى كل القيود التى كانت تفرضها الحرب فى ذلك الوقت .



مارلبورو

وكان هذا الرجل هو مارلبورو :

بدأ مارلبورو خدمته العسكرية عام ١٦٦٧ وكان أمامه المجال فسيحاً ليحصل على خبرة واسعة ، فقد أستفاد من خدمتـــه كعقيد فى سلاح المشاة تحت قيادة تورين عام ١٦٧٤ — ١٦٧٥ .

وكان مارلبورو يميل إلى الصمت ، ويصعب معرفة ما يجول بنفسه ، وكان له بعض العيوب ، ولكنه كان يكرس جهده فى جميع الأوقات للعناية بالرجال الذين تحت إمرته ولخدمة بلاده بلا كلل . ومن صفاته الظاهرة أنه كان هادئاً قادراً على ضبط نفسه ، كثير المجاملة وشخصيته جذابه .

وكان جندياً متمكناً تماماً من مهنته ، وكان ينظر إلى مشاكل الحرب فى صورة شاملة ككل وعلاقتها ببعضها فى نفس الوقت لا ينسى التفاصيل الجوهرية التكتيكية أو الإدارية . وأكثر من ذلك كان ذا مزاج معتدل . فى ذلك العصر واجه فن القيادة تعقيدات متزايدة ، فبينما أستمرت الزيادة السريعة فى حجم الجيوش وفى مدى الأستراتيجية فتنظيم الجهاز الإدارى لم يساير هذه السرعة . علاوة على ذلك كانت وسائل المواصلات فى أوروبا بطيئة ، والسياسة معقدة لدرجة أن القائد وخاصة فى الجيش المتحالف ، كان يتحمل مسئوليات عديدة كدبلوماسى ، وفى نفس الوقت كان عليه أن يتعامل مع الساسة فى وطنه وقد كتب ونستون تشرشل[1] فى موضوع ممارسة القيادة : —

« إنها عبارة عن الحصيلة الديناميكية للقوى المتعددة الدائمـــة التغيير والتى يتعين أستيعابها باستمرار ، لأنه يوجد عوامل مؤثرة كثيرة منها أعداد ونوعيات الجنود وروحهم المعنوية وأساحتهم وثقتهم فى قادتهم وطبيعة الوطن وحالة الطرق والوقت والطقس ومن خلف كل هذا تقف سياسة الدولة ، والمصالح الخاصة ذات الأهميـــة والتى يتعين على الجيش حمايتها » .

وكانت القيادة شخصية ومباشرة ، أما نظام قادة وأركانات الفيالق والفرق فقد جاء بعد ذلك . وكان القائد العام فى ذلك الوقت يجب أن يكون قادراً على فحص كل منطقة

(١) السنيون تشرشل لمارلبورو

معركته وإرسال أوامره بواسطة نظام من الفدائيين والسعاة . وكان عادة ما يقف بحصانه فى المعركة وفى أكثر مناطق القتال نشاطا ويكون غالبا تحت تأثير النيران واضعا نصب عينيه موقع وظروف كل وحدة وعلى مواجهة من ٤ إلى ٥ أميال ، مراقبا العدو ، ويتصرف تبعا لتطور الموقف التكتيكى .

وكان الأمر يتطلب قائداً على مستوى رفيع فى فن الحرب ليتمكن من السيطرة الكاملة على كل هذه العوامل بالوسائل التى كانت متيسرة فى تلك الأيام .

وفى تلك الحقبة ، كانت الجيوش تتكون من جنسيات مختلفة، كما لو كان «جيشادوليا» . فمن بين ٤٠٫٠٠٠ رجل الذين أقرهم البرلمان البريطانى كنصيب إنجلترا فى القوة المتحالفة فى بداية الحرب ، كان هناك فقط ١٨٫٠٠٠ منهم بريطانى . وكان يسود بريطانيا شعور قوى ضد العسكريين حيث كان ينظر إلى الجيش المستديم ، بعد تجربة القرن ١٧ ، على أنه تهديد للحرية ، وعلى النقيض من ذلك ، كان المجتمع الفرنسى يميل إلى النزعة العسكرية .

وكان البرلمان البريطانى يناقش بتدقيق ، وبشىء من الغيرة ، مشروعات إنشاء الجيوش قبل إقرارها ، كما كان التجنيد صعبا . ولم تغير الأنتصارات الباهرة التى كان يحققها الجيش البريطانى من موقف إنجلترا . وكان هناك تجنيد إجبارى فى أضيق الحدود وكان الغرض منه على وجه العموم هو تشغيل المجرمين فى أعمال مناسبة . وكانت الأفواج تنشأ وتجهز بواسطة زعماء المقاطعات وتسمى بأسمائهم . وكان الفوج يتكون عادة من كتيبة واحدة مكونة من ٧٠٠ — ٩٠٠ رجل . وكان هناك دائما قدر كبير من الإحتيال فى النواحى الإدارية ، مثل الضباط الذين يسحبون أجورا ومؤن ومهمات لتسليمها إلى قوات لاوجودلها ، بينما تختلس مرتبات وتموينات ومهمات الوحدات الموجودة فعلا . وفى الواقع ، فإن ماحدث فى عام ١٧١٢ هو أن خصوم مارلبورو فى البرلمان أثاروا ضده إتهامات بالاختلاس ، عندما فقد مركز القوة وبناء على ذلك طردته الملكة « آن » من جميع مناصبه ، ولكن ثبت بعد ذلك أن كل هذه التهم كانت باطلة كلها . كما أعلن ج . م . ترافليان : « لم يحدث فى تاريخ إنجلترا أن استفادت بريطانيا من أحد أكثر من مارلبورو مقابل كل جنيه تقاضاه . . » وفى الحقيقة فإنه فعل الكثير لكى يقضى على ظاهرة الاختلاس بين صفوف جيوشه .

وحرب الأرث الأسبانى لجديرة بالدراسة من الناحية الإقتصادية ، إذ أنه فى هذه الفترة كانت مؤسسات البنوك والائتمان تجتاز تطورا سريعا ، فبنك إنجلترا أسس عام ١٦٩٤ ، وفى هذا المضمار كان الانجليز والهولنديون يتفوقون على الفرنسيين [١] . وكانت هذه الحرب حافز للنمو والأزدهار المالى ، وكذا أضفت النشاط والتنوع فى مختلف مجالات التجارة والصناعة مثل صناعة المنسوجات وتربية الخيول والتعدين والعتاد الحربى . ولكنها لم تسبب تدميرات لا لزوم لها لأن ذكريات حرب الثلاثين عاما جعلت الرجال تلطف من أهوال حرب الأرث الأسبانى على قدر الإمكان .

وقد حدثت بعض أعمال السلب ولكن التدمير المنظم كان قليلا جدا . وكان النظام صارما بالرغم من تأخر المرتبات عادة ، ولكن مستودعات الأمداد أصبحت الآن منظمة بكفاءة ، مع إعطاء عناية خاصة لتدبير الأصناف الجيدة من المهمات مثل الاحذية والملابس الثقيلة . وكان الجيش يشكل نسبة صغيرة جدا من مجموع السكان فى الدولة ومنفصلا عنها وقد كتب ج . م . ترافليان يقول : « كانت أوروبا سيئة التنظيم وأفقر من أن تدفع ضريبة دم كبيرة ، وكان نظامها المالى أضعف من أن تنفق منه مقادير كبيرة على حساب ثروة وسعادة الأجيال القادمة » .

وفى هذه الفترة أزدهرت الفرسان أزدهارا عظيما بالرغم من أن المعارك التى حدثت فى الأراضى المفتوحة كانت قليلة نسبيا وبالرغم من أن القادة كانوا يضعون ثقتهم الرئيسية فى المشاة . وقد أستمرت الفرسان الفرنسية متمسكة بتقليد الدوران نصف دورة [٢] والذى كان سائدا فى القرن ١٦ ، والذى يعتمد فيه الفارس على الأسلحة النارية أكثر من سيفه . أما الفرسان الإنجليزية والتى دربها مارلبورو ، فقد أتقنت تكتيكات كل من جوستاف وكرومويل ، فقد دربت على الهجوم فى خط بعمق ثلاثة صفوف ثم الاندفاع بأقصى سرعة نحو العدو مع إستخدام السيف فقط . وكانوا يسلحون بالمسدسات ولكنهم لا يستخدمونها إلا فى الأغارة

---

(١) لم يؤسس بنك فرنسا حتى عام ١٨٠٠ .

(٢) لقد حدث ذلك فى معركة بلنهيم

أو عند التعرض لهجوم مفاجىء . وفى البداية كان الفرسان لا يرتدون أى دروع على أجسامهم. ولكن فى عام ١٧٠٧ أدخل مارلبورو الدروع الواقية للجزء الأمامى لجسم الفارس . وكان رجال الدراجون يقوموا بالهجوم وهم ممتطين جيادهم أو يترجلون عند الوصول إلى ميدان المعركة والقتال من على الأرض كحملة بنادق . وقد حدث تغييران هامان بعد ذلك فى معدات المشاة ، التغيير الأول عام ١٦٥٠ حيث حلت البنادق ذات الزناد محل البنادق ذات الفتيل كسلاح نموذجى للمشاة ذى جهاز تفجير أكثر ضمانا ويعمل بصورة أفضل فى الجو الرطب ويعطى معدلا أعلى من النيران . أما التغيير الثانى والذى حدث فى نفس الفترة تقريبا ، فهو ظهور السونكى . وفى أول الأمر كانت المدية تثبت فى فم ماسورة البندقية . وجاء التغيير الحيوى الهام بإختراع السونكى ذو الحلقة عام ١٦٧٨ ، وكان يثبت بإحكام على الماسورة من الخارج مما كان يتيح للجندى إطلاق النيران مع وجود السونكى . وبذلك أصبح حملة الرماح زائدين عن الحاجة لأن حملة البنادق أصبحت قادرة على أداء نفس عمل الرماحين .

وفى عام ١٧٠٤ إختفى حملة الرماح من الجيش البريطانى أما الفرنسيون ، فبالرغم من إدخالهم للسونكى ، إلا أنهم كانوا أكثر بطأ فى إستخدامه . وكان على جنود المشاة على مدى ١٥٠ عاما التالية القتال وهم مسلحون فقط بالبنادق ذات الزناد والسونكى ويحملون أكياسا من الجلد تحوى كل منها على ما بين ٤٠ ، ٦٠ خرطوشة من الورق ولا يرتدون أى دروع لوقايتهم .

أما الكتائب الجديدة فتميزت بخفة حركة أكبر من ذى قبل فلم تعد مثقلة بحمل الرماح وفتائل الأشغال . وقد أدت خفة الحركة والأعتماد على قوة النيران أكثر من قوة الصدمة إلى زيادة إحتمال إنتصار القوات جيدة التدريب على القوات المتفوقة عدديا ، وهذا ما أعطاه مارلبورو حق قدره وكرس له كل اهتمامه فى شهور الشتاء الستة [1] ، لتدريب مشاته على الضرب المؤثر والتنشين بدقة واطلاق النيران بالفصائل المجمعة التى تتكون من ٥٠ رجلا . ودربت الأفواج أيضاً على أن تتشكل فى مربعات إذا تعرضت لهجوم الفرسان . وكان كل فوج يتضمن إلى جانب حمله البنادق ، سرية من قاذفى القنابل اليدوية ، وكانوا يختارون من الرجال الذين يتمتعون بلياقة

---

(١) فى غير موسم المعارك « المعرب »

بدنية جيدة ، وكانوا يعتبرون إلى حد ما قوات عاصفة .

وأصبحت التشكيلات الخطية فى ذلك الوقت أمرا مألوفا حيث أن الغرض منها كان إستغلال قوة النيران الجديدة إلى أقصى حد ، وقد أستغرق تدريب الجندى وقتا طويلا لكى يتفوق فى التكتيكات الخطية ، لأن ذلك يتطلب شجاعة وخبرة ومرانا . وأصبحت المواجهات أوسع لتفادى تزايد قوة نيران الأسلحة الصغيرة وأدى هذا أن الجندى يجد نفسه غالبا منعزلا عن رفاقه ، وعندما يحدث ذلك يظهر الخوف ، ومن هنا يبرز أهمية الضبط والربط الذى يكون هدفه اختراق عالم الخوف .

خداع اوروبا (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وقد أيد مارلبورو مزج المدفعية مع الأسلحة الأخرى والذى بدأ منذ عهد جوستاف ، وقد أدى العقيد « بلود »(١) وضباطه وجنوده خدمات جليلة له . وقد تغلبوا على صعوبات الأرض فى عام ١٧٠٤ عند السير عبر الغابة السوداء إلى الدانوب ، وقد قاتلوا خلال مستنقعات بلنهيم وهذا يدل على أنهم كانوا خبراء فى مهنتهم . وكانت مدفعية الميدان تطلق على المسافات البعيدة قنابل على شكل الكرات ، أما على القطاعات القريبة فكانت تطلق قنابل عنقودية ، والتى كانت تسمى فى ذلك الوقت « الحجل » . واختلفت الأسلحة الثقيلة للحصار عن مدفعية الميدان ، فكانت مواقع الحصار الثقيلة عادة ما تنقل خلال المجارى المائية . وكان مارلبورو يهتم إهتماماً كبيراً بالإستخدام التكتيكى لمدفعية الميدان ولذا كان يختار مواقع بطارياته بعناية واهتمام . وواجه مارلبورو موقفاً إستراتيجياً صعباً فى حرب الأرث الأسبانى عندما كان هو القائد العام للجيوش المتحالفة لبريطانيا والمقاطعات المتحدة الهولندية والنمسا وبادن وكذلك قوات صغيرة ألمانية ، وكانت فرنسا وأسبانيا متحدتين وقادرتين على العمل على خطوط إستراتيجية داخلية ، وفى عام ١٧٠٣ أنضمت إليهما بافاريا ، وامتلكت فرنسا فى الجبهة الشمالية سداً قوياً من الحصون المقامة فى الأراضى الواطئة الأسبانية .

وكان يحمى هذه الحصون جيش مكون من ٩٠٠٠٠ رجل ، وفى الجنوب كان الأسبان فى إيطاليا ، أما فى الشرق فى عام ١٧٠٣ فلم يوجد سوى بعض الخلافات التى منعت الفرنسيين

---

(١) كان يقود مدفعية مارلبورو . « المترجم »

والبافاريين تحت قيادة فيلرز ، (وهو من أقدر القادة) من التقدم إلى فينا بقوة كبيرة .
وانقسم الحلفاء إلى جبهتين تفصلهما مسافة واسعة ، كما كانوا غير متفقين فى سياستهم .
وأول مشكلة واجهت مارلبورو كانت مع الساسة والقادة الهولنديين والذين رغبوا فى الإحتفاظ بجيشهم بالقرب من وطنهم . ومراراً وتكراراً طوال فترة الحرب كان ينظر إلى خطط مارلبورو بحذر بل وقد صوت الهولنديون ضده وأصبح مارلبورو فى موقف لا يحسد عليه بسبب موقف الهولنديين المعوق بالإضافة إلى عدم معاونة الساسة البريطانيين له أحياناً ، بينما كان قائد العدو وهو لويس الرابع عشر توفرت له سلطة مطلقة وجهازاً مركزياً للحرب .

والإستراتيجية التى إتبعت فى الجنوب هى إرسال حملة حربية إلى أسبانيا وأسطول إنجليزى فى البحر المتوسط للسيطرة على البحار المحيطة بمسرح الحرب مع حصر العدو داخل نطاق الإستراتيجية البرية .

وفى عام ١٧٠٤ تم الإستيلاء على جبل طارق ، ومنذ ذلك الوقت وصاعداً إهتمت بريطانيا بالبحر المتوسط .

وقد خطط مارلبورو والذى كان فى الأراضى الواطئة ، لنقل الحرب إلى أقصى الشرق لكى يبعد التهديد الذى كان على وشك الإنقضاض على هولندا ، فى نفس الوقت لكى ينسق العمليات مع النمسا ويهاجم فرنسا فى أكثر مناطقها تعرضاً أى فى الركن الشمالى الشرقى .. وقد نجح مارلبورو فى عامى ١٧٠٢ — ١٧٠٣ فى طرد الفرنسيين من وديان الماس والراين السفلى بالرغم من أعاقة الهولنديين له . فى ذلك الوقت أصبحت النمسا فى خطر داهم، لذلك كانت إستراتيجية مارلبورو هى السعى وراء معركة فاصلة مع الفرنسيين على الدانوب وبالتالى يدفع خطرهم عن النمسا .

ولم يكن هناك ما يعوق تنفيذ فكرة القيام بحملة على الدانوب ، فقد كان كل شىء مجهزا لذلك ، فقد هدد فينا من إتجاه أولم (على الدانوب) ممثلا فى جيش مشترك فرنسى بافارى يتكون من ٤٥٠٠٠ر[1] رجل تحت قيادة الأمير « ماكس أمانويل » والمارشال « مارسين » .

---

(١) لقد دعم بسرعة وأصبح حوالى ٥٧٠٠٠ رجل « المعرب »

وكان من الضرورى والحيوى إنقاذ فينا لأنه لو قدر وهزمت النمسا وخرجت من الحرب فيصبح فى أمكان الفرنسيين تجميع كل قواتهم على الجبهة الشمالية . ولما كانت الحرب الدفاعية أو البطيئة الحركة تلائم لويس الرابع عشر لموقعه المتوسط المحصن القوى ، فقد بات واضحاً أنه لابد للحلفاء من القيام بالهجوم . ولكن كان هناك عقبتان من الناحية العملية أمام الحلفاء ، فكان الساسة الهولنديين فى حالة ذعر وهلع كبيرين ، وكان على مارلبورو التغلب على شكوكهم وترددهم .

وثانيا كان يجب على الجيوش المتحالفة لتصل إلى الدانوب أن تشق طريقها خلال وسط الفرنسيين الذى سيعرض جنبهم للهجوم .

وكانت طريقة مارلبورو لتحقيق غرضه هو العمل بسرعة واستخدام الخداع مع الصديق والعدو ، وعلى الفور أخبر الهولنديين بأن حملته ستكون على نهر الموزل ، وبعد معارضة شديدة زودوه بوحدة هولندية . أما الغرض الحقيقى فكان سراً لا يعرفه سوى القليل من الشخصيات السياسية البارزة .

ووعد مرغريف (حاكم بادن) لويس بمساعدته كما خرج الأمير يوجين من فينا لمقابلة مارلبورو .

وبدأ التحرك رسميا فى ١٦ مايو عام ١٧٠٤ من « بدبورج » والتى تقع غرب كولونيا بـ ٣٠ ميلا .

وكان مجموع قوات مارلبورو ٤٠٫٠٠٠ رجل ، وبفضل العمليات التى تمت عامى ١٧٠٢ — ١٧٠٣ أمكن للحلفاء التقدم بدون عقبات عبر وادى نهر « الموسى » (أسفل نامور) وعلى طول نهر الراين حتى نقطة تقابله مع « نهر النكار » قرب مانهايم ، ولكن كانت عملية نقل الجيش إلى منطقة « هايدلبرج » يحفها المخاطر ، فكان عليه عبور مواجهة الجيش الفرنسى بقيادة « فالروى »[1] ، وكانت السرعة هى سر النجاح .

وقد ساعد فى ذلك كثيراً ، نقل المدفعية الثقيلة والإمدادات بواسطة النقل المائى ، كما كتب ترافليان : — « كانت هناك مرحلتين لخداع أوروبا » . المرحلة الأولى حتى كوبلنز

---

(١) كان فالروى ليس بالقائد الماهر ذو الخبرة فقد هزمه مالبورو هزيمة منكرة فى راملیز فى مايو ١٧٠٦ « المعرب »

حيث كان متوقعا أن يتحول الجيش عندها صاعداً نهر الموزل ، ولكى يعطى هذا الأنطباع شونت هناك مخازن ضخمة من المؤن والذخائر . ولكن عند وصول الجيش إلى « كوبلنز » واصل سيره جنوبا ونقلت المخازن خلفه عبر الراين . وحتى ذلك الحين كانت الوجهة الظاهرية للجيش ليست الدانوب ، بل الألزاس . ولكى يتمم مارلبورو هذه المرحلة من الخداع ، أقام كوبرى من القوارب عبر الراين عند « فيلبسبورج »[1] . وفعلا ، حدث رد فعل على الفور فقد حرك « فالروى » جيشه أولا من الأراضى الواطئة لتغطية نهر الموزل ، ثم بعد ذلك لينضم إلى مارشال « تالارد » فى الدفاع عن الألزاس . وأرسل الهولنديون تدعيمات لمارلبورو وبشكل ظاهر ، وفى ٣ يونيه فقط كشف السر . وفى هذا التاريخ عبر الفرسان نهر النكار عند « لادنبورج » فى منتصف الطريق بين « مانهيم » و « هايدلبرج » وبدلا من تقدمهم إلى « فيلبسبورج » واصلوا التحرك فى اتجاه الجنوب الشرقى إلى « سنشيم » ومنها فى أتجاه نهر الدانوب ، وتم التقدم فى براعة واتقان . وقد اثار انتباهى دائماً هذا التقدم ، ولقد طرت فوق طول الطريق متمعناً من الجو مسالكه ، وقد حصلت على منظر جيد للأرض من أعلى وهناك أجزاء معينة من الطريق أعرفها جيداً حيث قمت بأستطلاعها من قارب بخارى فى الراين وكذا بالسيارة ، وخاصة المناطق القريبة من « كوبلنز » و « مانهيم » و « نهر النكار » . وقد أدى هذا التقدم التكتيكى إلى أرباك وحيره المارشالات الفرنسيين . وهذا التحرك العظيم للأعداد الغفيرة من الجنود عبر مسافات طويلة ليعتبر مثالا جيداً للقدرة الإدارية . وقد عمل مارلبورو بأقصى سرعة منذ بداية الربيع ليجهز الترتيبات الدبلوماسية والإدارية لحملته ، ليضمن السماح له وقواته بالمرور والمساعدة من كل الحكام الألمان المعنيين . وكانت الكبارى كلها فى حالة جيدة وفى أماكنها الصحيحة ، وكانت المؤن متوفرة وجاهزة وفى أماكن الأحتياج إليها . أما النواحى المالية فقد رتبت مع أصحاب البنوك الألمانية ، وكان كل شىء يدفع فى الحال وبدون أى تأخير . ونتيجة لكل ذلك أستقبل جيش مارلبورو من الأهالى أستقبالا حسناً ، وعند مدخل بافاريا كانت هناك أحذية جديدة فى أنتظار الجيش .

وظهر الجيش فى شكل جيد والجنود فى نظام ممتاز بفضل الضبط والربط القاسى والتدبير

---

(١) كانت على بعد حوالى ٢٠ ميلا جنوب مانهيم . « المعرب »

المسبق للعناية باحتياجات الجنود خلال تقدمهم سواء من غذاء أو ملبس أو وسائل الراحة والترفيه .

ومع بداية تقدم الجيش بدأت الوحدات الألمانية الحليفة تنضم إليه وعلى مراحل؛ وعند « مندلشيم »(١) فى ١٠ يونيه لحق الأمير « يوجين » بركب مارلبورو ، وكانت المقابلة الأولى لهذين القائدين العظيمين. كان يوجين أصلا من مقاطعة « سافوى » ، وتلقى ثقافته فى بلاط لويس الرابع عشر ثم حول خدماته إلى الإمبراطور الرومانى المقدس بعد أن لقى الأهمال والأزدراء من الملك لويس ، وخلال مهنة الجندية عبر ٥٠ عاماً كان هدفة المهيمن عليه هو ألحاق هزيمة ساحقة بفرنسا . وكان يوجين تكتيكياً ماهراً وقائداً شجاعاً ، وربما كانت شهرته فى هذه الأيام أكثر من شهرة مارلبورو لأنه حارب ضد الأتراك سنين عديدة وعند انتصاره عليهم فى « زنتا » عام ١٦٩٧ أستطاع طردهم من المجر . وكان يعتبر يوجين الرجل الثانى لمارلبورو لما لديه من مهارة وخبرة عسكرية كبيرة وروح توافة للمقامرة ، فى نفس الوقت كان خياله إلى حد ما محدوداً ولذلك كان على أستعداد للأذعان لمن يفوقه من ناحية العبقرية .

ولم يمض يوم أو يومين على لقاء القائدين عند جروس هيباش حتى أنضم إليهما قائد ثالث هو « مرغريف بادن لويس » وقد سبق ذكره ، وكان أيضاً جندبا محنكا ، ولكنه غير محب للمغامرة وعنيد .

النصر باهظ التكاليف : (أنظر اللوحة رقم ٢٨)

وحدد القادة الثلاثة الإستراتيجية المستقبلة وتضمنت تحرك يوجين إلى الراين ليثبت « فاليرى » و « تالارد »، بينما يتقدم مارلبورو والمرغريف لويس شرقاً فى بافاريا لحمل « ماكس أمانويل » على تغيير وجهته . وقد أتفق مارلبورو والمرغريف لويس على تبادل ممارسة القيادة على جيشهم المشترك يوماً بعد يوم ، وتلك طريقة غريبة ومن الصعب أنها راقت مارلبورو . وعلى أى حال ،وطبقاً لما ذكره السير ونستون تشرشل « لقد كان هناك فهماً أكيداً بأن الإدارة المسيطرة على الحملة كانت فى يد مارلبورو، الذى كان لديه الجيش الأكبر بالأضافة إلى أنه حضر مجازفا بنفسه لأنقاذ الإمبراطورية » . ولسوف نرى فيما بعد على كل حال ، كيف أستطاع

(١) فى منتصف المسافة بين الراين والدانوب

مارلبورو التخلص من لويس قبل بلنهيم . ورحل يوجين فى أتجاه الراين ، بينما واصل الجيش الرئيسى طريقه فى أتجاه الجنوب الشرقى أى فى أتجاه الدانوب وذلك خلال أرض غير مرتفعة. أما الجزء الصعب الوحيد فى المسيرة كان فى مستجمع مياه الأمطار فى الممر الشديد الأنحدار بعد « جيسلنجن » شمال « آولم » بحوالى ٢٠ ميل ، وهناك أنهمرت الأمطار على الجياد التى أخذت أقدامها تنزلق على الأرض ففقدت قدرتها على الأتزان، بينما كافح الرجال لتحريك المدافع والعربات فوق الأرض التى تحولت إلى بركة من الطين . ومع نهاية يونيه هبط إلى وادى الدانوب ٧٠٫٠٠٠ رجل . وفى أول يوليه كان مارلبورو فى « امردينجين » بينما كان « مارسين » و « ماكس » على الضفة الجنوبية وعلى بعد ١٠ أميال أعلى النهر عند « ديلينجين » وأصبح الآن يقف مارلبورو إلى الشرق من عدوه . وفى نفس الوقت أقرب من عدوه إلى فينا . وكان مارلبورو قد عقد العزم على أن يكون أول تحرك له للأستيلاء على « دونوورث » على الدانوب وتقع على مسافة ١٥ ميلا فى أتجاه مجرى النهر وإلى الشرق منه لأن الأستيلاء عليها سيؤمن له خطاً جديداً لمواصلاته فى أتجاه الشمال عبر « نورد لينجين » إلى منطقة وسط ألمانيا الصديقة والمضمونة ، كما تضعه فى مكان مفتوح على الدانوب ويصبح له رأس جسر إلى بافاريا . ولم يكن لديه وقت ليضيعه . فقد كان « تالارد » ومعه ٦٠٫٠٠٠ رجل على وشك التحرك شرقاً عبر الراين من « ستراسبرج » . بينما لن يكن فى أمكان يوجين ومعه ٣٠٫٠٠٠ رجل فقط من أيقافه . وما هو أكثر أهمية من ذلك أن « مارسين » فطن للأهمية الحيوية لدونوورث ، وأرسل فعلا ١٤٫٠٠٠ مقاتل للأستيلاء عليها فى ٣٠ يونيه ، فى نفس الوقت كان جيش مارلبورو على استعداد للتحرك . وكان مارلبورو فى وضع يسبق مارسين بعشرة أميال إلى المدينة . وفى فجر ٢ يوليه تحرك شرقاً للأستيلاء على « دونوورث » ، وكان على القوات أن تقطع ١٥ ميلا فى طريق مرعب ، ثم فى نهايتها تقتحم تحصينات منيعة ، وكان المفتاح إلى دونوورث هو التل الحصين سسلنبرج ذو القبة المرتفعة والذى يمر بجوار حائط المدينة . وقد تم الأستيلاء عليه فى نهاية النهار بعد ساعة ونصف من القتال الوحشى والدموى . وقد ذكر عن هذا القتال : ـ « كان الرجال تذبح أو تتمزق عند فوهات المدافع ، بينما كانت السونكيات تخترق الأحشاء . »

وقد اندفع الحرس الأمامى للجيش ليقتحم على الفور وعلى مواجهة حادة ضيقة ، مجبراً المدافعين على التركيز على هذه النقطة بينما ألتف باقى الجيش للهجوم من الخلف ، ونجحت الخطة ، وكان النصر باهظ التكاليف . ولكن كان مارلبورو يعلم متى تصبح الأهداف جديرة بالتضحيات والخسائر الجسيمة ، ويعرف أيضاً أن الجنود سوف يتقبلون هذه الخسائر بشرط أحرازهم للنصر . ولكن هناك حدود للتضحية بأرواح الرجال . وأتذكر الآن بعض القادة الذين كان يطلق عليهم « الجنرالات البارعين فى القتال » ! أبان حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وكانوا يستخفون أستخفافا كاملا بالأرواح البشرية وسوف أعالج هذا الموضوع فى تفصيل أكثر فى الفصلين ٢٠ ، ٢١ .

الاحتياطى الاستراتيجى

(أنظر اللوحة رقم ٢٩)

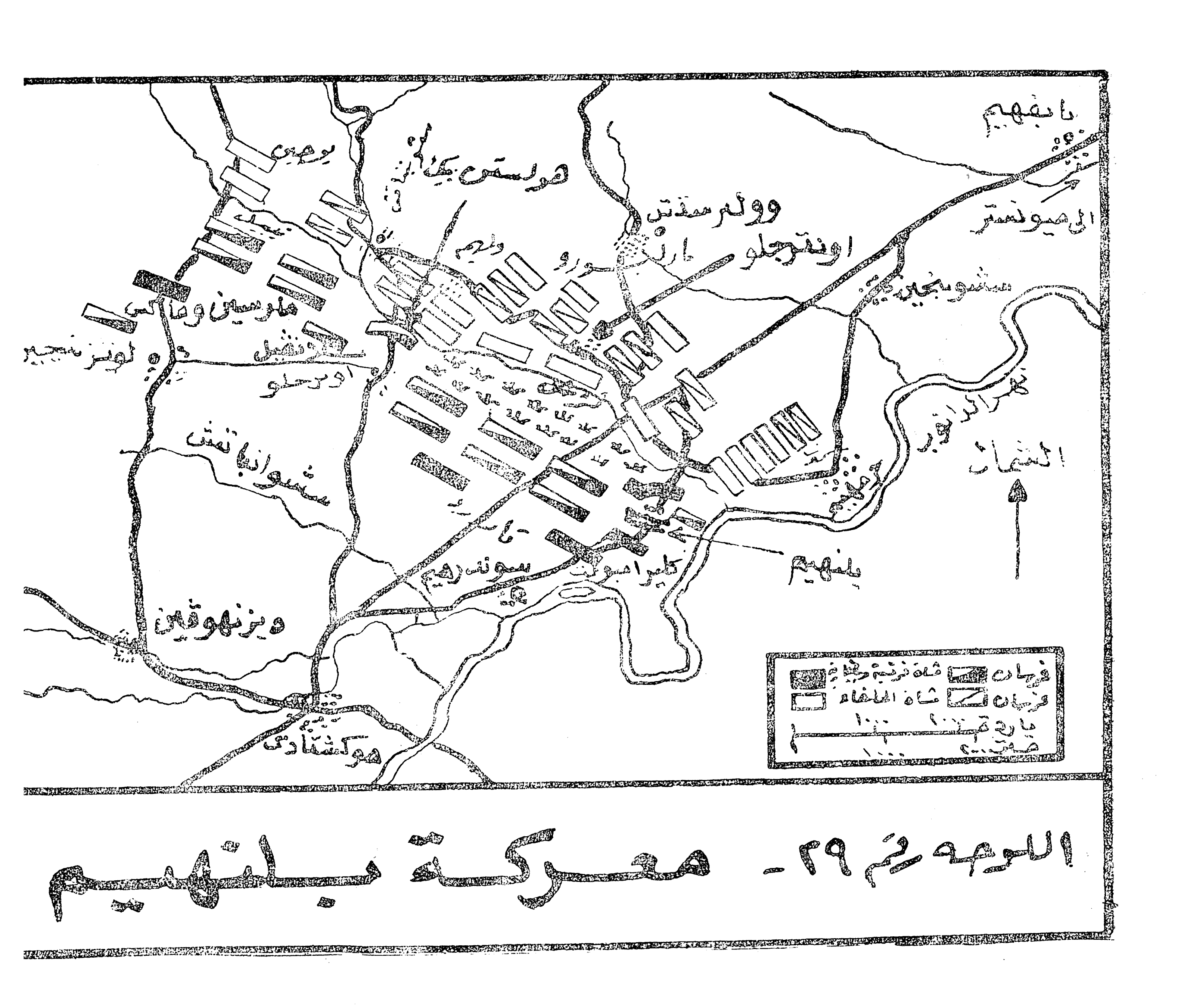
والآن أصبحت الطرق مفتوحة كما كان يريد مارلبورو سواء من الأمام أو الخلف ، كما أصبح يتمركز فى موقع قوى بين الفرنسيين وفينا . ولم يمض يومان على عبور « تالارد » لنهر الراين حتى كانت هذه المعلومات بين يدى مارلبورو . وبات ضروريا وبسرعة فصل « ماكس أمانويل » عن تحالفه مع الفرنسيين . ولتحقيق ذلك قام الجيش المتحالف لمارلبورو باجتياح وتدمير بافاريا فى يوليه . ولكن كان الأمير ماكس على إستعداد لترك شعبه يعانى أهوال الحرب لفترة وجيزة حيث كان يتوقع أن يقوم نالارد لنجدته . ولم تخدم هذه الوسيلة الحربية البغيضة والتى كرهها مارلبورو بشدة أى غرض مفيد . وفى أوائل أغسطس إنضمت قوات «تالارد» مع قوات «مارسين» « وماكس أمانويل » . وفى ١٠ أغسطس تحركوا شمالا لعبور الدانوب عند « ديلينجين » .

وكان «تالارد» القائد العام ، ويتمتع بذكاء وبقدر أكبر من الإحترام ، ولكنه كان دبلوماسيا أكثر منه جندياً محترفاً ، كما لم تكن لديه السلطة الكاملة على جيشه ، والتى كانت من الأمور الضرورية جداً خلال الحرب . وفى اليوم الثانى أى يوم ١١ أغسطس وصل يوجين إلى الشرق فى نفس الوقت الذى وصل فيه « تالارد » . وقد كتب يوجين من « ميونستر » إلى مارلبورو شارحاً الخطوط العريضة للموقف وناصحاً له بالإنضمام عليه بأسرع ما يمكن . وقد أسرع مارلبورو للإستجابة لطلب يوجين بالإنضمام عليه لأنه كان منذ ثلاث

سنوات وهو يحترق شوقاً حتى يجد فرصة لمقابلة الفرنسيين فى معركة مفتوحة كاملة . وفى ١٢ أغسطس كان الفرنسيون والبافاريون يعسكرون عند بلنهيم الواقعة على الدانوب وإلى الشرق من « هوتشستادت » وعلى مسافة حوالى خمسة أميال أعلى النهر من « ميونستر » . ولم يكن لديهم رغبة أكيدة فى القتال ، ولايتوقعون أن ينشب الحلفاء معركة نظراً لقوة موقعهم . وأكثر من ذلك ، كما تناهى إلى علمهم ، بأن لويس بعيداً عنهم ويقوم بحصار أنجولستادت ومعه ١٥٫٠٠٠ جندى ، وفى الحقيقة أن مارلبورو تعمد التخلص من ذلك الزميل البطىء حتى يعطى لنفسه الحرية فى القتال . وخلال ذلك اليوم أستطلع مارلبورو ويوجين الموقف من فوق برج كنيسة تابفهنم ووضعا خططهما .

وعسكر الجيشان الفرنسى والبافارى فى سهل مفتوح أنتهى منه الحصاد حديثاً ، وكان يقع مباشرة خلف مجرى سيل يسمى « نيبيل » ويصب فى الدانوب من الشمال . وإنتشر الجيشان على مواجهة أربعة أميال ؛ وتمركز جيش تالارد نفسه فى الميلين الواقعين بين قرية « بلنهيم » على ضفة الدانوب وقرية « أوبرجلو » ، بينما تمركز جيش مارسين وماكس من « أوبرجلو » وشمالا حتى قرية أخرى تسمى « لوتزينجين » وإلى الشمال من « لوتزينجين » كانت هناك تلال مكسوة بالغابات ، وبالتالى فقد كانت هناك حماية طبيعية لكلاجانبى الموقع الدفاعى القوى للفرنسيين والبافاريين ، علاوة على أن القرى كانت عبارة عن حصون قوية ويمر مجرى النيبيل من أمامها ، كما كانت هذه الحصون لديها تفوق فى المدفعية . ومهما كانت قوات الطرفين أكثر وأقل كفاءة ، فكان تعداد كل قوة متضادة من الجيشين من ٥٠٫٠٠٠ إلى ٦٠٫٠٠٠ رجل .

لقد وضح لمارلبوروويوجين أن توزيع جيوش الأعداء غير سليم ، فكانت موزعة بشكل غير متصل ، وقد تم وضع الفرسان على الجناحين طبقاً للعرف الجارى فى كل جيش ، عداجيش تالارد الذى وضع فرسانه على يساره لعدم وجود مكان على يمينه نظراً لوجود النهر . وكان هذا يعنى فى الواقع أن مركز الجيوش المشتركة حول « أو برجلو » يتكون بشكل سائد من الفرسان ، ومن المسلم به أن الأرض كانت مناسبة لمعركة الفرسان .



اللوحة رقم ٢٩ - معركة بلنهيم

ومظهراً آخر من مظاهر ضعف تخطيط الفرنسيين ، فكان جيش تالارد يبعد حوالى ١٠٠٠ ياردة إلى الخلف من النيبيل . ولسوف تكون من المفيد فى هذه المرحلة أن ندرس بشىء من التفصيل توزيع القوة الفرنسية البافارية ، لأن تفكير تالارد يحتاج إلى شىء من التعليق . وقد جاء فى بعض المراجع الرسمية بأن سبب وجود جيش تالارد على مسافة ١٠٠٠ ياردة خلف مجرى النيبيل ، لأنه لم يتوقع حدوث هجوم عليه فى ١٢ أغسطس أو حتى فى ١٣ أغسطس ، لذلك أعتقد أنه لاحاجة تدعوه لإتخاذ الحذر من المفاجأة والتى تعتبر من أهم العوامل المؤثرة فى الحرب . وكان هناك قاعدتين تكتيكيتين رئيسيتين تشكلان دائماً جزءاً من تفكيرى العسكرى *

١ — يجب على القوة الموجودة فى حدود مسافة الهجوم من العدو أن يتم توزيعها وتنظيمها فى تشكيل قتال ملائم ، بحيث تكون مستعدة فى جميع الأوقات للقتال بسرعة إذا فوجئت .

٢ — يفقد المانع ٥٠٪ من قيمته إذا ما وضعت القوات بعيدة عنه وإلى الخلف منه ، وهذا سيتيح للعدو إستطلاع طرق الإقتراب المؤدية إليه وبالتالى يستطيع العبور بدون أى تدخل .

وقد أفادنى هاتين القاعدتين فى أكثر من مناسبة فى الحرب . وقد يكون من المفيد أن أذكر مثالين لذلك ، فالمثال الأول فى أفريقيا ، فقد قاتل الجيش الثامن تحت قيادتى شاقا طريقه من العلمين حتى واجه فى مارس ١٩٤٣ خط ماريث المشهور على الحدود التونسية . وهناك أوقفنا روميل ثم قام بمهاجمة جيش أيزنهاور ودفعه إلى أقصى الشمال موقعاً هزيمة فادحة بإحدى الفيالق الأمريكية فى منطقة « جافصة » . وبدأنا نضع فى اعتبارنا عدم الاستخفاف بخصمنا روميل ، وكان لديه قوات قوية فى الشمال وفى المدى المؤثر للضرب على قواتى ، وكان من الممكن أن يستدير ويتحول جنوبا ليشن هجوما مفاجئاً ضدنا ، والذى إذا نجح فسوف يؤخر نهاية الحرب فى أفريقيا ، وهذا هو ما فعله تماما . ولكن قواتنا كانت موزعة فى تشكيل ملائم وعلى أستعداد للقتال بسرعة ، فما كان من روميـــل أن إنسحب .

أما المثال الثانى فكان فى شمال غرب أوروبا ، ففى ديسمبر ١٩٤٤ كانت جيوش الحلفاء على عتبة ألمانيا تخطط لعبور الراين ، فى ذلك الوقت كان هتلر نجح فى بناء وإعادة تجهيز أحتياطى استراتيجى من بعض الفرق المدرعة ، وكنا نعلم ذلك ، ولكننا لم نستطع أن نتحقق من مكان تمركز هذه القوات .

وكانت الجيوش الإنجليزية والكندية تحت قيادتى فى القطاع الشمالى من مواجهة الحلفاء وحالتها جيدة من التوازن التكتيكى ، ولذلك لم تتواجد لدىّ أى مخاوف . ولكن لم يكن الحال كذلك على الجبهة الأمريكية ، لأن جيوشهم كانت موزعة فى تجمعين رئيسيين ، وقد فتح كل منهما فى تشكيل المعركة للهجوم وكان يوجد بينهما ثغرة حوالى ١٠٠ ميل عبر الأردن والتى كان يغطيها فيلق واحد فقط مشكل من ٤ فرق ضعيفة .

وبعد أن درس هتلر الموقف أختار هذه الثغرة بالذات ليدفع فيها بهجومه الكبير ، وفوجئت الجيوش الأمريكية ، وأنشطرت جبهتهم إلى قسمين ، وتكبدوا خسائر فادحة تتراوح بين ٨٠٫٠٠٠ مقاتل ولى كلمة عن المواقع والموانع ، فخلال عملية الإنسحاب من بلجيكا إلى دنكرك فى مايو ١٩٤٠ كنت فى ذلك الوقت قائداً للفرقة الثالثة البريطانية . وكنت دائماً أحرص كل الحرص فى التأكد من أن نيران ودوريات قواتى تعوق الألمان من الاستطلاع القريب للمواقع والموانع التى أنشأتها على النهر ، ونتيجة لذلك لم نجد صعوبة فى الإحتفاظ بمواقعنا حتى حان وقت الإنسحاب فانسحبنا إلى مواقع أبعد .

المبارزة بالمدفعية (أنظر اللوحة رقم ٢٩)

لنعد الآن إلى أحداث قصتنا التى أدت إلى معركة بلنهيم . كان الجيش الفرنسى بقيادة تالارد فى المدى المؤثر للجيوش المتحالفة والتى يقودها القائدان العظيمان مارلبورو ويوجين . ولم يأخذ تالارد أى احتياط ضد المفاجأة ، ولو أنه دفع بقواته إلى الأمام حتى حافة النهر فى يوم ١٢ أغسطس لأصبحت عمليات جيش مارلبورو صعبة جداً فى أقامة الجسور وما سيتبعها من عبور الجيش . وكما ذكرت قبل ذلك أن تالارد كان ذكياً ، ولكن فى هذه المرة كان فى غاية الغباء بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان .

أما مارسين وماكس فقد عملا بتعقل أكثر بكثير فى الجزء الشمالى من الجبهة . فقد

أحتفظنا بالأرض الصلدة الملاصقة للحافة السبخية للنهر حتى يمكنهما تدمير قوة العدو قبل أن تستجمع نفسها بعد خوضها لهذا النهر الضحل الذى يشبه المستنقع . لاحظ مارلبورو ويوجين ذلك وقررا نتيجة لتحمسهم للقتال ولثقتهم فى مهارة رجالهم مهاجمة العدو ومفاجأته فى الصباح التالى الموافق ١٣ أغسطس [١] .

بدأ تحرك جيوش الحلفاء قبل الفجر ، ومع شروق الشمس كان هناك تسعة قولات من الجنود قد تدفقت داخل السهل على شكل مروحه متخذين تشكيل القتال ، وتحركت جميع المشاة الدانمركية والبروسية والفرسان النمساوية تحت قيادة يوجين شمالا فى اتجاه لوتزنجين لتشكيل الجناح الأيمن للهجوم .

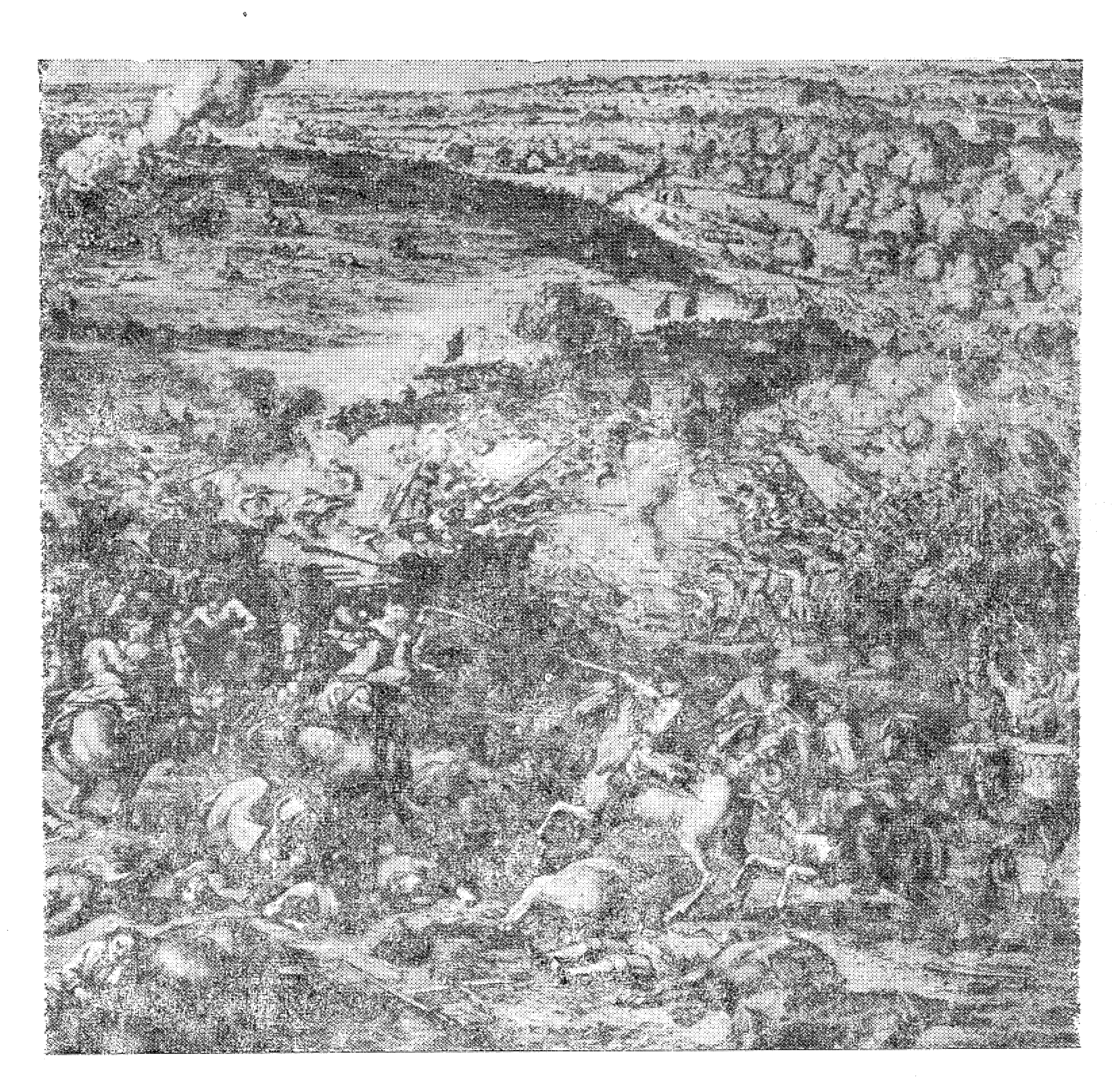
أما القوة الرئيسية المكونة من الإنجليز والهولنديين والهانوفريين والهسيين تحت قيادة مارلبورو فقد تقدمت مباشرة إلى الضفة الشرقية من النيبيل . وبالرغم من أن تالارد لم يكن يتوقع الهجوم ، إلا أنه فى الساعة السابعة لم يعد لديه أدنى شك فى أن هجوماً سيقع لا محالة . وهب الفرنسيون على عجل يستحثون أنفسهم للعمل بسرعة . وأضطرب تفكيرهم بسبب هذه المحنة والخطر الجاسم عليهم ، ونجحت المفاجأة ، ووجد مارلبورو ما كان يأمله ، فكانت مواقع العدو موزعة بمحاذاة خيامهم .

وقد كان هناك دفاع قوى عن بلنهيم ممثلا فى ٩ كتائب مشاة ويعاونها ٧ كتائب أخرى بالإضافة إلى ١١ كتيبة فى الإحتياطى . وفى المنطقة بين بلنهيم وأوبرجلو كان لدى الفرنسيين ٤٤ سرية فرسان فى خطين تدعمها ٩ كتائب مشاة وأربع سرايا من الفرسان المترجلة بينما دافع عن أوبرجلو ٣٢ سرية فرسان و ١٤ كتيبة مشاة . وإلى اليسار كان هناك ٣٢ سرية فرسان و ١٧ كتيبة مشاة وأخيراً كان يوجد فى لوتزينجين ٥١ سرية فرسان و ١٢ كتيبة مشاة .

وبينما كانت طوابير يوجين تشق طريقها نحو لوتزينجين فوق الأرض المشجرة والمكسرة ، كان مارلبورو يراقب أوضاع أنتشار الفرنسيين والبافارين ، وكان الجناح الأيمن

---

(١) فى نفس التاريخ الذى تولى فيه مونتجمرى قيادة الجيش الثامن فى الصحراء الغربية فى مصر عام ١٩٤٢ ، وقد سجل سيرونستون تشرشل فى مذكرات هذا التطابق ارمنى الغريب . « المد — »



معـــركة بلنهـــيم

للعدو قويا وبشكل خاص لوجود قوات كبيرة فى قريتى « أوبرجلو » و « بلنهيم » . بينما كان على يوجين أن يقاتل العدو بقوة فى الشمال محاولا بقدر الإمكان تطويقه من الخلف . وكان الجزء الحاسم من المعركة قد اصبح وشيك الوقوع بين مارلبورو وتالارد فى أقصى الجنوب ، وتوقع مارلبورو مقاومة تالارد له أثناء عبور النيبيل ، وبناءاً عليه فقد نشر مارلبورو جنوده فى تشكيل غير عادى من أربع خطوط .

فنى المقدمة كان هناك ١٧ كتيبة مشاة واجبها عبور النيبيل والإستيلاء على الضفة الغربيه ، ويأتى من خلفهم خطين من الفرسان ، الخط الأول مشكل من ٣٦ سرية والخط الثانى مشكل من ٣٥ سرية وكان مهمتهما القيام بالهجوم الرئيسى . ثم جاء تشكيل الخط الأخير المكون من ١١ كتيبة من المشاة وكان عليه البقاء على الضفة الشرقية لنيبيل لتغطية أى إنسحاب محتمل للفرسان . ومع بداية المعركة ، كان على المجهود الرئيسى للهجوم أن يوجه إلى القريتين ، وكان هذا سيفاجأ العدو ، كما حدث قبل ذلك ضد أقوى جزء من سشلنبرج . وإذا أمكن تطويق حاميتى القريتين ، فلن يستطيعا القيام بهجوم مضاد على أجناب تقدم الفرسان التى ستتمكن من أختراق منتصف الخط الفرنسى البافارى . وبدأت أول أحداث المعركة فى الساعة العاشرة صباحاً بتحرك قولات اللورد « كتس » المشكلة من المشاة عبر النيبيل فى مواجهة بلنهيم حيث كانت ضفة المجرى متماسكة إلى حد ما ، ولكن كان لا يمكن بدء الهجوم الرئيسى حتى يصل الجناح الأيمن بقيادة يوجين إلى المكان الملائم . وعلى مدى أربع ساعات وحتى الظهر جرت مبارزة بالمدفعية مسببة خسائر فادحة ، بينما مضى المهندسون العسكريون فى جيش مارلبورو فى تركيب ستة كبارى فوق المجرى المائى . وأثناء ذلك كان الرجال يقومون بالصلوات والتضرع إلى الله ، وأخذ مارلبورو يتفقد الخطوط ، وعند أحدى النقط أختفى عن الأنظار نتيجة للأتربة والدخان المنبعث عن سقوط قنبلة بالقرب منه . وكانت الشمس حامية ، وانتظر الجميع فى توتر ولكنه ظهر ولم يصبه خدش .

لا يعرفون سوى كيف يموتون

وأخيراً وبعد الظهر بقليل وصل رسول من قبل يوجين ليبلغ مارلبورو بتمام الإستعداد ، وعليه أصدر مارلبورو أوامره بالتحرك للهجوم . وعلى اليسار تقدم للأمام أول ألوية كتس

نحو بلنهيم ، وكانت الأوامر تقضى بألا يطلق النيران حتى يصلوا إلى السياج المحيط بالفرنسيين. وعندما كان المهاجمون على مسافة ٣٠ خطوة من العدو ، وإذا بقصفة نيران فرنسية تدمر ثلث قوة المهاجمين ، ولكن على الفور تدعم الهجوم بلوائين آخرين .

فى ذلك الوقت كان المركيز « دى كليرا مبولت » قائد الفرنسيين فى بلنهيم قد أرسل يستدعى السبع كتائب لمعاونة كتائبه التسعة الأولى . واستمر القتال بوحشية كما حدث فى سشلنبرج .

وعندئذ فقد « كليرا مبولت » صوابه واستدعى أحتياطيه الأخير المكون من ١١ كتيبة. وواصل جيش مارلبورو هجومه ولكنه لم يستطع اختراق طريقه إلى داخل القرية ، ومع ذلك فقد استمروا فى تنفيذ مهمتهم وهى كسر مقاومة العدو .وبوصول ١٢٠٠٠ جندى فرنسى لمؤازرة قوى الحامية الأصلية أصبحت القرية مكتظة بالفرنسيين بدرجة أن أصبحت حرية الحركة مستحيلة . وهنا أمر مارلبورو بتثبيت ومحاصرة القوات فى بلنهيم حتى لا تكون لديهم القدرة على المشاركة فى المعركة فى أى مكان آخر . وبينما كان هذا القتال العنيف يجرى على الجانب الأيسر طوال اليوم ، كان يوجين يقوم بدور مماثل على مواجهة أوسع فى الجانب الأيمن . وخاض قتالا ضاريا طوال اليوم لحصار وكسر مقاومة العدو بين « أوبرجلو » و « لوتزينجين » مراقباً فى نفس الوقت المعركة الرئيسية التى تدور بعيداً إلى الجنوب وعلى أستعداد لأمداد هذه المنطقة بالقوات إذا دعت الضرورة لذلك ، وربما يحتاجها مارلبورو بالرغم من أنه كان يصعب عليه شخصياً توفيرها .

وأخذت التطورات الحاسمة مكانها فى الوسط عند قرية « أوبرجلو » وجنوبها ، وكان مارلبورو يقود بنفسه القوات فى هذا المكان وفى نفس الوقت يراقب ما يجرى من أحداث عند بلنهيم . وقد ركز مارلبورو أهتمامه بالعمليات فى الوسط والتى عاونه فيها قادته المرؤوسين بكفاءة رائعة وخاصة لورد « أوركنى » وشقيقه « تشارلز تشرشل » . وعلى العكس من ذلك أخذ « تالارد » فى التحرك ذهابا وإيابا عبر مختلف أجزاء جبهة القتال ، دون أن تكون له السيطرة الكاملة على أى منها وغير مدرك فى الحقيقة لما يدور .

وبدا واضحا الآن أن تالارد قد ارتكب خطأ فادحا فى بداية المعركة فى السماح للخطوط

الأولى من مشاة وفرسان العدو فى منطقة الوسط بعبور النيبيل دون أن يتصدى لها فيما عدا نيران المدفعية . وقد تكون فكرته أنه كلما زادت قوات العدو التى تعبر المجرى المائى إلى حد معين كلما زادت القوات التى يمكن تدميرها ودفعها للخلف فيه وذلك عندما يطلق فرسانه الأكثر عدداً فى هجوم مضاد .

وإذا كان ذلك فعلا قد دار برأسه ، فذلك يعنى أنه أساء تطبيق ذلك التكتيك عمليا لأن ما حدث أنه لم ينفذ الهجوم إلا بعد أن تشكلت قوات الحلفاء على ضفة المجرى التى يتمركز عليها قواته . وبينما كان القتال دائراً على أشده ، ترنح واضطرب قوات الحلفاء فى عدة نقط إلا أن تالارد لم يتمكن من دفعها إلى الخلف .

وفى الواقع فقد أستطاع المزيد من قوات مارلبورو العبور وبدأوا فى كسب الأرض بأعدادهم المتفوقة وبتكتيكهم الأفضل . وبفضل الترتيبات الطويلة السابقة عملت المشاة والفرسان فى تعاون وثيق .

فدفعت الفرسان فى المقدمة حيث انقضت على العدو ، بينما وضعت المشاة خلفهم كأحتياطى ومشكلة فى صفوف بينها فواصل حتى تستطيع الفرسان فى حالة الإنسحاب المرور من خلالها وإعادة تشكيل وتنظيم نفسها فى الخلف ثم القيام بهجوم تالى ، وفى ذلك الوقت تقوم المشاة بستر فرسانهم بإطلاق وابل من النيران المركزة على فرسان العدو التى تكون فى أثر فرسانهم .

وكان يستطيع أيضاً رجال المشاة المدربين على استخدام السونكى الوقوف والتصدى لفرسان العدو فى قتال متلاحم بشكل أكثر كفاءة من قبل .

بينما لم تؤدى المشاة الفرنسية دورها كما يجب فى هذه المرحلة من المعركة ، فقد كانت عبارة عن ٩ كتائب من المجندين صغار السن والذين قال عنهم ترافيليا : — « لا يعرفون شىء عن المعارك سوى كيف يموتون فى مواقعهم » .

رسالة الى الزوجة « سارا »

وفى وقت مبكر من بعد الظهر جاءت ذروة المعركة ، عندما تقدمت ١٠ كتائب مشاة من الحلفاء بقيادة أمير « هولستين بيك » لاقتحام قرية أوبرجلو ، وهنا قامت ٩ كتائب

من المشاة الفرنسية والإيرلاندية بقيادة الماركيز دى بلانفيل بهجوم مضاد يائس من القرية واستطاعت رد المهاجمين على أعقابهم حتى مجرى النيبيل مرة أخرى .

وفجأة أصبح الجانب الأيمن فى وسط قوات مارلبورو معرضاً للهجوم ، ولاح خطر إنشطار جيش مارلبورو ، ولاحظ مارسين ذلك ، فقام على الفور بتجميع قوة من الفرسان بالقرب من أوبرجلو . وأدرك مارلبورو ذلك الخطر فأرسل رسالة عاجلة إلى يوجين يطلب منه تدعيمه بالفرسان .

وعندما بدأ رجال مارسين فى الإندفاع نحو مجرى النيبيل لشن الهجوم ، فإذا بلواء الفرسان الذى أرسله يوجين قد وصل فى اللحظة الحرجة وأشتبك معهم ووجه ضربته نحو جنبهم واستطاع طردهم ، وعلى الفور استجمعت مشاة هولستين بيك قواها وعاودت الهجوم مجبرة خصمها على العودة للخلف داخل أوبرجلو وتثبيتهم داخلها . ومن الأرجح أن يكون مارلبورو هو القائد الوحيد من الحاضرين الذى فهم أن النصر فى المعركة أصبح يتوقف على نتيجة هذا القتال .

وأصبح هناك أعداد كبيرة من قوات العدو محصورة فى بلنهيم وأوبرجلو ، كما استطاع يوجين تثبيت جناح العدو الأيسر ، ولم يعد الآن أمام جيش مارلبورو إلا أن يركز قوة ساحقة فى الوسط لتحقيق النصر كاملا .

ولكن مارلبورو أخذ ينتظر الفرصة المناسبة ، وثبت الموقف فى الوسط لكى يعطى لرجاله فسحة من الوقت لتأخذ أنفاسها ويعيد تنظيم القوات والتكتيكات على كل جبهة القتال ، مع تجهيز التشكيلات التى ستقوم بالضربة الحاسمة .

أما يوجين فكان لا يزال أمامه الكثير من العمل الشاق فى الجانب الأيمن . ولم تكد الساعة تعلن الرابعة بقليل حتى كان رجال يوجين يقاتلون حول وخلف « لوتزينجين » . وفى ذلك الوقت أحضر مارلبورو آخر قواته عبر النيبيل ، ووضعها على الجبهه الواقعة بين بلنهيم وأوبرجلو ، وشكلها كالآتى : — خطين من الفرسان وصل مجموعهم إلى ٩٠ سرية ومن ورائهم وضع ٢٣ كتيبة مشاة فى خطين آخرين .

وكان فى الجانب الآخر وفى مواجهتهم يوجد لتالارد ٦٠ سرية فرسان على الأكثر وتسع كتائب مشاة .

وعندما أدرك تالارد أخيراً تكتيكات مارلبورو ، أحضر مشاته ودفعهم مباشرة إلى جنوب أوبرجلو لصد الهجوم .

أما مارلبورو فلم يكن قد أكمل بعد فتح فرسانه فى تشكيل القتال ، ولذا أرسل ٣ كتائب مشاة وبعض المدفعية لتتعامل مع مشاة تالارد .

ولفترة وجيزة ، كانت المشاة الفرنسية لها الأفضلية فى الصدام ، ولكن فرسانهم لم ينتهزوا هذه الفرصة للقيام بالهجوم .

وما أعلنت الساعة الخامسة والنصف حتى كان مارلبورو مستعداً . وقد دمرت مدفعية مارلبورو تقريباً آخر ماتبقى من التسع كتائب الفرنسية الباسلة ، ثم انقضت بعدذلك فرسان مارلبورو فى هجوم كاسح .

ومن فوق أرض لوتزينجين المرتفعة كان مشهد السهل على مرآى من أعين قوات الجانبين . ومع تحرك فرسان الحلفاء للأمام فى خط كبير والفخذ فى الفخذ وبسرعة متوسطة وهى تكسب الأرض ، فما كان من الفرسان الفرنسية أن انطلقت هى الأخرى لتقابلها . والفرسان الفرنسية كانت هزيمتهم محققة حتى ولو كان أعدادهم أكثر من فرسان مارلبورو ، لأن هجوم الفرنسيين كان عبارة عن إندفاع لسرايا فرسان فردية تقف وقفة قصيرة فى اللحظة الأخيرة لتطلق نيران مسدساتها ، وفى هذا التوقف للفرنسيين تزيد فرسان مالبورو سرعتها ضاربين خصومهم بأقصى ما يمكن أن تحققه الصدمة الناتجة من سرعتهم وثقل تشكيلهم المجمع ، معتمدين على السيف فى قتالهم .

أما الثغرات التى حدثت فى خط جبهة مارلبورو نتيجة تحرك الفرسان للقضاء على الفرنسيين كانت تملأ على الفور من الخلف ودفع الفرنسيون للخلف بسرعة ، وأخذوا يتراجعون ولكن سرعتهم زادت حتى وصلت إلى سرعة الهروب .

وتحت ضغط قوات مارلبورو اندفع الشاردون من الوسط الفرنسى نحو الدانوب وأخذوا يتساقطون من فوق المنحدرات ويتخبطون فى المستنقعات .

أما المارشال تالارد والذى كان يشق طريقه إلى بلنهيم إحساساً منه بالواجب فقد وقع

فى الأسر وأحضر إلى القائد العام للحلفاء ، فى تلك اللحظة كان مارلبورو يخط رسالة[1] إلى زوجته سارا وهو على ظهر جواده : — « لا يتسع لى الوقت لأقول أكثر ، ولكن أرجوكى أن تبلغى إحترامى للملكة، وتحيطينها علماً بأن جيشها قد حصل على نصر باهر . وأن السيد تالارد وجنرالين آخرين موجودين فى عربتى وأننى لازلت فى أثر الباقى » .

وفى اللحظة التى تحطم فيها وسط الفرنسيين ،غير اللورد « أركنى » اتجاه قواته المشكلة من الإنجليز والأسكتلنديين وانضم إلى كتس وتشرشل فى تطويق بلنهيم لمنع أى إنسحاب من القرية إلى ضفاف الدانوب .

أما « كايرا مبولت » ، فقد أصابه الذعر وقفز فى النهر حيث غرق ، ولم تكد الساعة تعلن التاسعة مساءاً حتى استسلم جميع الضباط الفرنسيين الموجودين فى بلنهيم .

وأمكن أسر ٩٠٠٠ رجل غير جريح من قوات العدو الموجودين فى القرية . أما أوبرجلو فقد تم أجتياحها فى زحف كبير . وبقى الآن كل من مارسين وماكس واللذان شهدا ما كان يجرى فى المعركة بالرغم من بعدهما عن مركز الهزيمة ، ففى حوالى الساعة السابعة قاما بعملية إنسحاب منظمة نحو الغرب ، ولم يتم مطاردتهما لعدم وجود إحتياطى عند مارلبورو ، علاوة على حلول الظلام وتحتم عليه التعامل مع عدد كبير من الأسرى بالإضافة أن جيش مارلبورو قد خسر حوالى ٤٥٠٠ قتيل و ٧٥٠٠ جريح أى ٢٠ ٪ من قوته . بينما كانت خسائر الفرنسيين حوالى ٤٠٠٠٠ من بينهم ١٤٠٠٠ أسير أى ٧٠ ٪ من قوتهم بالإضافة إلى فقد ٦٠ مدفع .

وكانت معركة بلنهيم معركة حاسمة وعميقة النتائج .

ففى بداية عام ١٧٠٤ كان لويس الرابع قاب قوسين أو أدنى من تحقيق مطامعه للسيطرة على أوروبا ، فقد كانت أسبانيا والأراضى الأسبانية الواطئة وإيطاليا فى حوزته ، كما أن إمبراطور النمسا بدا على وشك أن يتهاوى تحت قدميه .

ولكن لويس بعد الحملة التى قام بها هذا العام ،قرر اتخاذ موقف الدفاع نتيجة لعلمه بأن

---

(١) لقد كتبت هذه الرسالة على ظهر فاتورة حساب أحد الفنادق « المعرب »

جيشه أصبح أقل تفوقاً علاوة على أن اقتصاده أصبح مجهداً . وكان يلتمس فقط سلاماً محترماً لكى يحافظ على حدوده .

وبتلك الحملة التى سار بها مارلبورو إلى الدانوب ، وعلى الأخص تلك الساعات الثلاث التى استعاد فيها زمام الموقف فى أوبرجلو وأطلق بعدها هجوم الفرسان ، فقد بدد بذلك السحابة التى كانت تخيم كالسيف المسلط على أوروبا لمدة أكثر من أربعين عاماً . أما الجنود البريطانيون الذين ظلوا فى طى النسيان حوالى القرنين والنصف الماضيين فى أوروبا، قد حققوا الآن مكانة مرموقة كأفضل جنود فى العالم .

عملاق عصره

ولكن حتى الآن فالحرب لم تضع أوزارها بعد ، وقد تعين على مارلبورو أن يخوض القتال فى الأراضى الواطئة فى الفترة من ١٧٠٥ — ١٧١١ ، بكل المشاكل القديمة والخاصة بجبن الهولنديين وتحصينات الفرنسيين .

وكان من الصعب خلق المعارك بالرغم من تحقيقه لثلاثة إنتصارات كبرى فى راميلايز (١٧٠٦) وأودينارد (١٧٠٨) ومالبلاكويت (١٧٠٩) . وكانت الحرب فى معظمها حرب حصار ومناورات صغيرة ، ولكن على الرغم من هذه الحرب التى لا تلائم طبيعته إلا أن عبقرية مارلبورو تفوقت . وعلى سبيل المثال ففى عام ١٧٠٨ إقترح أن يتبع إنتصاره فى «أودينارد» بتقدم مباشر إلى باريس ، ولكن هذا الاقتراح لم يوافق عليه القادة الآخرون الذين أصروا على محاصرة « ليل » .

وبينما كان يوجين يقوم بالحصار الفعلى ، غطى مارلبورو عملياته ، وذلك لحمايته من تلك القوة الأكبر منه والتى يقودها كل من المارشال « فيندوم » و « بيرويك » . ومن يوليه حتى ديسمبر ظل مارلبورو يصد ويبعد القوة الفرنسية التى أخذت تحاول نجدة المدينة ، وذلك بالقيام بالمناورة التى تجلى فيها الإقتصاد وبعد النظر بشكل غير عادى ، وفى كل مرة كان يتجنب الضربة القاتلة للعدو قبل أن يقوم بها .

ولم يمض على ذلك وقتاً طويلا حتى بدأت العلاقات بين مارلبورو ورؤسائه السياسيين تسوء ، لأن استراتيجيته لإنهاء الحرب لم تتفق مع سياسة أى حزب من الأحزاب السياسية

فى إنجلترا ولذلك فى نهاية عام ١٧١١ أعفى من القيادة .

وقد استحوذ مارلبوروانتباه جميع المؤرخين العسكريين لأنه كان عملاق عصره ، ولكن كان هناك قائدين أقل منه بعض الشىء فى حرب الأرث الأسبانى يستحقان الذكر ، الأول هو « أيرل من بتربورو » والذى قاد الحملة البريطانية على أسبانيا عام ١٧٠٥ ، وفى العامين اللاحقين أخضع وقهر كل من برشلونه وفالينسيا والشاطىء الشرقى فاتحاً بذلك الطريق إلى مدريد . ويرجع تحقيق هذه المكاسب المثيرة وبقدر قليل من القوات إلى الجسارة والجرأة والمهارة فى الخداع ، كما أنها رجعت أكثر من أى شىء آخر إلى سوء القيادة والضعف الغير عادى فى المهارة العسكرية لدى الجانب الآخر .

وقد استولى « بتربورو » على فالينسيا دون أن يطلق قذيفة واحدة حيث أقنع الجنرال الأسبانى « لاس تورمى » والذى كان معه ٧٠٠٠ رجل بالإنسحاب لمدة تقرب من شهر أمام قوة لم تزد أبداً عن ١٣٠٠ رجل بل لم تزد فى أحد النقط عن ١٥٠ رجلا .

وقد قام « بتربورو » بخداع « لاس تورمى » بأن دفع بعض ضباطه عمداً لكى يأسرهم « لاس تورمى » حيث قاموا بتحذير القائد الأسبانى من خطورة وضخامة جيش « بتربورو » ونجحت المكيدة .

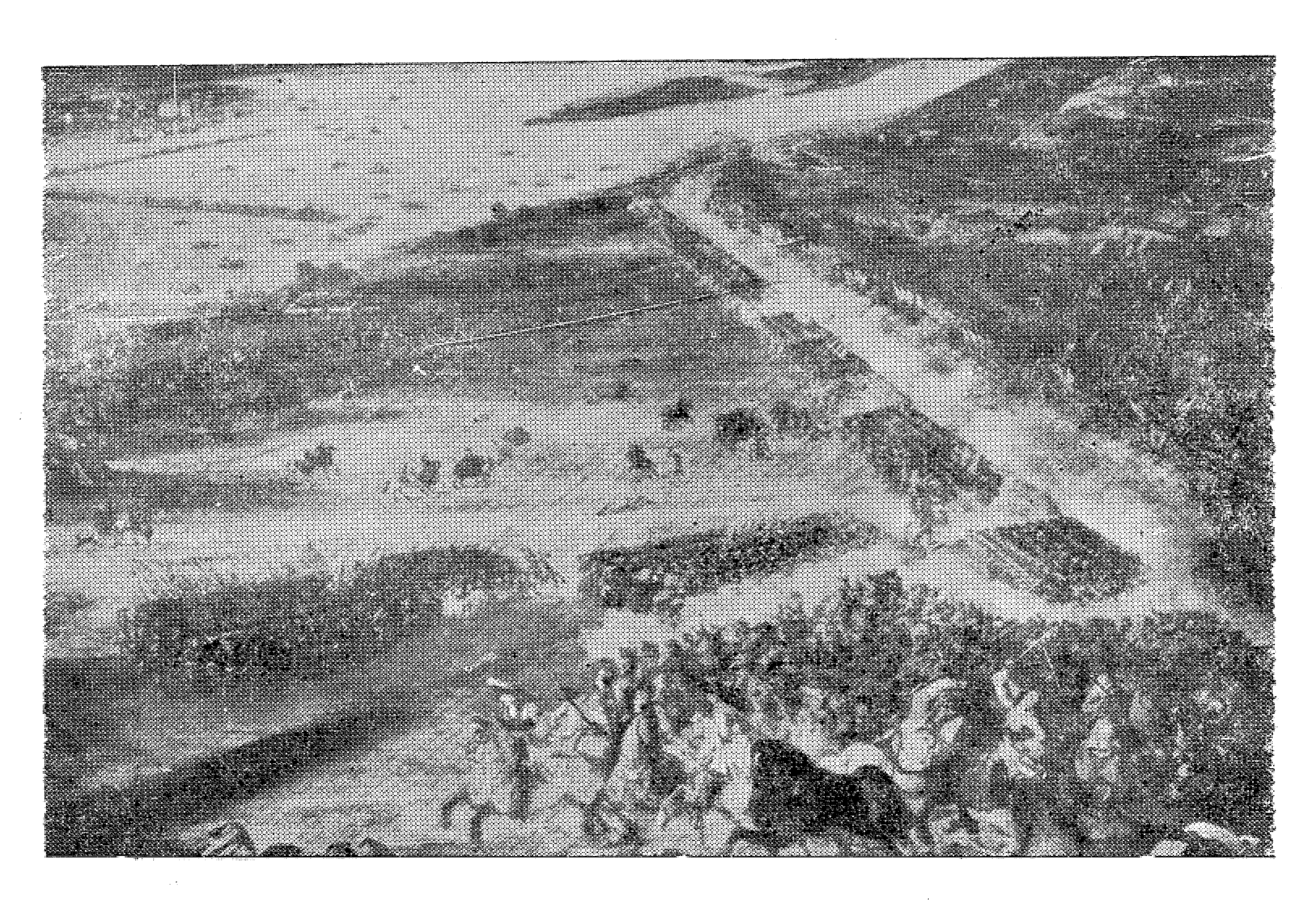
وأثارت أعمال بتربورو الرائعةفرحافى لندنوذلكفىالوقت الذى كانت الحرب فى الأراضى الوطئة تتقدم ببطء شديد ، ولكنها كانت فى الحقيقة شيئاً خياليا أكثر من كونها واقعاً حقيقياً .

أما الشخصية الثانية والتى كانت أكثر أهميه هى المارشال « فيلارز » والذى كان إلى حد بعيد أقدر جنرال لدى لويس الرابع عشر بعد « كوندى » و « تورين » . وهو الذى وضع فينا فى خطر عند انتصاره فى ألمانيا عند « فريد لينجين » عام ١٧٠٢ وعند «هونشستادت» عام١٧٠٣ . وكيفما كان فقد كان فيلارز جندياً محترفاً أكثر من كونه أحد رجال البلاط ، كما أن سرعة إهتياجه وفظاظته قد جعلاه محبوباً بين رجاله أكثر من حب رؤسائه السياسيين له . ولبعض الوقت فقد أجبر « فيلارز » على الإنزواء وعدم الظهور على مسرح الأحداث .

ولـكن فى عام ١٧٠٩ تولى القيادة الرئيسية على الجبهة الشمالية ، وفى الواقع لم يستطع أن يكون أفضل من مارلبورو ، ولـكنه أقام دفاعاً قوياً جداً . وكان مغامراً لا يتردد فى خوض المعارك ، ولـكن كان فى نفس الوقت حذراً بدرجة مناسبة .

وفى عام ١٧٠٩ عندما كان جيشه يشـكل الخط الدفاعى الأخير الفرنسى قبل باريس وكان قوام جيشه أقل من عدد أعدائه إلى حد كبير ، وبالرغم من أنه كان يعانى شخصياً من جرح خطير حدث له فى المعركة إلا أنه أدار معركة « مالبلا كويت » وجعل انتصار مارلبورو وجيوشه فى هذه المعركة نصراً باهظ التـكاليف .

وفى عام ١٧١٠ استمر فى صد العدو ، وأيضاً فى عام ١٧١١ عندما شيد فيلارز خطه الدفاعى الشهير « خط الذروة » والذى امتد من شاطىء سكاردى إلى نامور . وقد استغرق مارلبورو طوال مدة حملته وهو يحاول إختراق هذا الخط .



الجيش السويدى يهاجم الجيش الروسى.

وعندما رحل مارلبورو عن المسرح ، استطاع فيلارز النيل من يوجين والتفوق عليه فى عام ١٧١٢ ، وهزمه فى معركة دنين[١] دافعاً الحلفاء للخلف . وهكذا بعد أن خسرت فرنسا كل حملات الحرب ، جاءت فى النهاية وانتصرت . وشكراً لقوة ومناعة تحصينات فوبان وقيادة فيلارز ، وبذلك حصلت فرنسا على شروط معقولة فى المعاهدة الأخيرة «معاهدة أوتريخت» عام ١٧١٣ . وقد عاصرت الحرب الشمالية العظمى بين السويد وروسيا (١٧٠٠ — ١٧٢١) حرب الأرث الأسبانى ، بل استمرت فترة أطول منها . وكانت الدولة الموسكوفية[٢] مجبرة على التوسع إلى أن تجد لنفسها حدوداً يمكن الدفاع عنها . وحدث بالفعل صداماً بينها وبين السويد فى خمسينات القرن السابع عشر ، تلك القوة الكبيرة الراسخة فى الشمال . وسوف أتعرض فى هذه الحرب لشخصية عسكرية واحدة وهى شخصية شارلز الثانى عشر . ففى عام ١٦٩٧ أصبح ملكاً على السويد وعمره خمسة عشر عاماً . ومن المؤكد أنه كان يتمتع بصفات شخصية استثنائية ، كما أنه ورث التقاليد العسكرية التى حوفظ عليها منذ عصر جوستاف . وكان مغرماً بالحرب بكل ما فيها من قسوة ومخاطر كما كانت لديه قوة احتمال كبيرة . وتوفرت لديه الرغبة أيضاً فى القيام بنفسه بكل الأعمال البطولية ذات الطابع المتهور والتى كان يطلبها من جنوده . ولكنه كان غير حكيم فيما يتعلق بالتورط فى الحرب مع روسيا .

وقد أتبع « بطرس الأكبر » الاستراتيجية المتمتعة « بقداسة القدم » والتى تتضمن تجنب المعركة وأغراء العدو بالتقدم إلى قلب المناطق المترامية والمفتوحة فى روسيا وبالتالى يجعل العدو يواجه مشاكل المسافة والطقس والدمار والغارات المتكررة التى تشن عليه عبر خطوط المواصلات الطويلة . وكما علق نابليون : — « لقد أنتهك شارلز معظم مبادىء القيادة » .

وكان شتاء عام ١٧٠٨ — ١٧٠٩ قاسياً وبشكل غير عادى ، جعل الجيش السويدى يعانى منه بطريقة مرعبة .

وجاءت الطامة الكبرى فى يونيه ١٧٠٩ عندما كان السويديون يحاصرون « بلتافا »

---

(١) فى فرنسا جنوب غرب فالينسيينز .

(٢) نسبة إلى موسكو

فى أوكرانيا وأطبق بطرس عليهم بقوات كبيرة متفوقة ، وجرح شارلز شخصياً وفر جنوباً ملتمساً حماية الأتراك ، ولم يجد جيشه ما يفعله سوى الاستسلام . وفى الوقت المناسب عاد مرة أخرى إلى السويد وحيداً . ولكنه استمر فى خوض القتال إلى أن لقى مصرعه على يد أحد القناصة خلال حملته فى النرويج عام ١٧١٨ .

وانتهت حرب الشمال العظمى عام ١٧٢١ بمعاهدة « تايسنادت » ، وكانت هذه علامة أضمحلال السويد وأنبثاق روسيا كقوة كبيرة جديدة فى أوروبا .

وقد أعتبر بعض الكتاب شارلز الثانى عشر على أنه أحد القادة الكبار نظراً لقيادته وانتصاراته فى ميادين القتال ، وأنا لا أوافقهم على هذا لأن هذا كثير بالنسبة له . فلم يبدو أن كان لديه أبدا استراتيجية محددة واضحة ، فقد غالى فى تقدير القوة العسكرية للحلفاء وقلل من قيمة القوى الكبرى لمقاومة الروس ، كما فعل كل من نابليون وهتلر فيما بعد . ولم يفهم ماهى السياسة الدولية . . ؟ كما كان يفتقر إلى الحكمة والذكاء . وسيكون تعليق الأخير عليه أنه لم يكن لديه أى اعتبار بالنسبة لأرواح جنوده ، كما أنه هو الذى أوصل السويد إلى حافة الدمار .

مسابقة القراء

		عدد
الجائزة الأولى :ـــ	١٠ جنيهات مصرية	١
الجائزة الثانية :ـــ	٣ جنيهات مصرية	٢
الجائزة الثالثة :ـــ	٢ جنيــه مصرى	٣

١ ـــ طريقة حل المسابقة : يوجد عدة أسئلة ومدون لكل سؤال ثلاثة أجابات أحداها صحيح ، فعلى القارىء أن يضع علامة (√) أمام الإجابة الصحيحة مع كتابة اسمه وعنوانه بالكامل .

٢ ـــ بعد أن يتم أختيار الأجابات الصحيحة تنزع ورقة الأسئلة والإجابات من الكتاب وتوضع فى مظروف عليه طابع بريد وترسل فى بحر شهر من صدور الكتاب على العنوان التالى :ـ

مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ شارع محمد فريد / القاهرة

مسابقة « الحرب عبر التاريخ »

٣ ـــ سيتم فرز الإجابات الصحيحة وعمل قرعة لأختيار الفائزين وأولوياتهم .

٤ ـــ سيتم نشر أسماء الفائزين فى الجزء التالى للكتاب والذى يظهر فى أول كل شهر.

٥ ـــ لقد رصد الفيلد مارشال مونتجمرى الجوائز المالية السابقة للقراء وعن كل جزء من الأجزاء السبعة التالية لكتابه

الحرب عبر التاريخ

أسماء الفائزين فى مسابقة الجزء الثالث

حل المسابقة :ـ

ج ١ : ٢ ــ كوبرى ستامفورد .

ج ٢ : ١ ــ ٢٨ سبتمبر ١٠٦٦ .

ج ٣ : ١ ــ فيليب أغسطس .

ج ٤ : ٣ ــ معركة حطين .

ج ٥ : ٣ ــ الاحتضان .

ج ٦ : ١ ــ الراهب الإنجليزى روجر بيكون .

ج ٧ : ١ ــ فى عام ١٣٢٤ عند « متز » .

ج ٨ : ٢ ــ جونزالفو .

ج ٩ : ٣ ــ أسم مدفع .

ج ١٠ : ٢ ــ بين عامى (١٥٧٧ و ١٥٨٠) .

الجوائز :ـ

الجائزة الاولى وقدرها ١٠ جنيهات

فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣٩٠٤

باسم : ناجى عبد المطلب

العنوان : ١٤ ش الدكتور عبد العزيز إسماعيل / مصر الجديدة

الجائزة الثانية وقدرها ٣ جنيهات وعددها ٢

١ ــ فازت بها استمارة المسابقة رقم ١٤٢٧

باسم : بدر محمد على

العنوان : ٦٦ ش الفراعنة بالإسكندرية

٢ ــ فازت بها استمارة المسابقة رقم ٨٤٠

باسم : حسن عبد الجواد

العنوان : شارع النادى بطنطا

الجائزة الثالثة وقدرها ٢ جنيه وعددها ٣

١ — فازت بها استمارة المسابقة رقم١٥٥٧

باسم : وجيه زكى محمود

العنوان : شارع البحر بدمياط

٢ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٩٥٢

باسم : حسن ممدوح

العنوان : بيروت ص . ب ٢١٣

٣ — فازت بها استمارة المسابقة رقم ٣١٢٨

باسم : فواز على جوشه

العنوان : العراق — بغداد ص . ب ٤٢٣

* نرجو من الفائزين الحضور إلى مكتبة الأنجلو المصرية ١٦٥ ش محمد فريد (عماد الدين) القاهرة لاستلام جوائزهم .

* ونظراً لوجود بعض القراء خارج جمهورية مصر العربية سيتم إرسال جوائزهم عن طريق البريد الموصى عليه .

* هذا الكتاب يقع فى سبعة أجزاء رصد الفيلد مارشال مونتجمرى لكل جزء مسابقة وجوائز مالية لها ، فمن لم يسعده الحظ فإلى اللقاء مع مسابقة جديدة فى الأجزاء التالية التى تظهر فى أول كل شهر .

هكذا ينتهى الجزء الرابع من الكتاب ، أما الجزء الخامس فضمنه مونتجمرى الآتى : —



* حرب جنكينزابر .
* شراء الرتب العسكرية .
* المرض والقيادة .
* المعركة التى خالفت كل قواعد الحرب .
* الحرب تحسم بالمعارك .
* حرب العبقرية الفردية .
* معركة أبو قير البحرية .
* الرجال تستخرج من أحشاء الأرض .
* نابليون يحتل نصف مليون ميل مربع .
* إمساك الثور من قرنيه .
* جانكيز خان .
* اختراق سور الصين العظيم .
* رسالة صن — تزو .
* حرب الأفيون .
* اليابان وفن الحرب .
* ضحية بشرية لآلهة الحرب .
* التنين الأصفر .
* ملحمة الحرب .
* الطبقة الكهنوتية .
* بابور النمر .

فإلى اللقاء مع مونتجمرى على صفحات الجزء الخامس .

عميد

فتحى عبد الله النمر

المســـــابقة   نمرة ٠٠١٥٠٠

١ — مؤسس الدولة العثمانية هو القائد

١ — عثمان .

٢ — أرطغــول .

٣ — أورخان .

٢ — في مدينة أدرنه عام ١٥٤٣ أنتج أكبر مدفع شوهد حتى ذلك الوقت بواسطة

١ — أربان .

٢ — قسطنطين .

٣ — البارثون .

٣ — حوصرت فينا بالجيش العثماني تحت قيادة السلطان سليمان وكان تعداده

١ — ١٠٠ر٠٠٠

٢ — ٣٥ر٠٠٠

٣ — ٧٠ر٠٠٠

٤ — كان يقود الاسطول المسيحي في معركة لبانتو عام ١٥٧١

١ — بارباريجـــو .

٢ — دون جوان .

٣ — أندريا دوريا .

٥ — دارت معركة بريتنفيلد بين القائدين

١ — جوستاف وتيلي .

٢ — تورستنسن وبابنهايم .

٣ — فورستنبرج وموترو .

٦ — « لقد تثلمت قرون الملك جوستاف وفقدت حدتها » من قال هذا ؟

١ — مكسميليان .

٢ — ولنشتين .

٣ — فرديناند .

٧ — كانت خسائر حرب الثلاثين عاما فى المانيا

١ — ٤ مليون فرد .

٢ — ٩ مليون فرد .

٣ — ٨ مليون فرد .

٨ — لقد أطلق البيرتانيون اسم « عاهرة بابل الصغيرة » على

١ — أمـــير الراين .

٢ — قرد كرومويل .

٣ — جوســـتاف .

٩ — لقد تم تحصين الثغرة بين « الجورا » و « الفوسجس » بواسطة

١ — تورين .

٢ — كوندى .

٣ — سباستيان دى فوبان .

١٠ — كان يقود جيش الحلفاء ضد فرنسا فى حرب الارث الاسبانى

١ — مارلبـــورو .

٢ — روبرت بلاك .

٣ — جون مونك .

الاسم ______________________

العنوان ______________________

____

____